الفتوحات الإلهية

شرح

الأسماء الحسنى

للذات العلية

المنان

سبحانه وتعالى

فضيلة الشيخ

د . محمد الدبيسي

حفظه الله وغفر له ولوالديه

الله
السلام
الملك
التواب
العفو
الحي القيوم
الحليم
الشكور
العليم
الرزاق
الحميد
المقدم المؤخر
الولي القوي

الطبعة الأولى

ذو الحجة ١٤٣٢هـ

نوفمبر ٢٠١١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

هذا الكتاب يُنْشر هذه الأيام لما منَّ الله تعالى به على عبده : محمد الدبيسي بالشفاء بعد طول مرض، وهو إهداء لأصحاب فضل لا ينسى

وهم :

ابني عبد الرحمن –حفظه الله تعالى- لما قام به من فضل لا يوصف يُرجى له به ثوابه وفضله وأجره من الله تعالى وحده

وكذلك :

أستاذَي الجراحة الكبيرين الجليلين :

الأستاذ الدكتور: مصطفى عدلي رحمه الله تعالى

لحسن صحبته ورعايته، وجميل فضله وأُخُوَّتِه

والأستاذ الدكتور: علاء فايز رحمه الله تعالى

لما قام به من جهد ولما نالنا منه من حسن خلق وتواضع وطيب نفس

داعياً الله ربنا بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد أن يغفر لهما ويسكنهما فسيح جنانه ويلحقهما بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

تقديم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١ ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ۝٧١ ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١] .

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اللهم صَلِّ على سيدنا محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد[1].

موعدنا في هذه الرسالة في شرح الأسماء الحسنى مع اسمه ﷻ المنان؛ لنلخص فيها تلك الدروس التي ألقاها فضيلة الشيخ/ د. محمد الدبيسي في عام ٢٠٠٨م، لمعرفة هذا الاسم المعظم والتحقق بآثاره، والقيام بحقه، ودعاء الله تعالى وتوحيده به، ثم التخلق بهذا الاسم ذي الأهمية الكبيرة في إصلاح النفس، وفي إصلاح العلاقة بين المؤمنين وبين ربهم ﷻ، وفي إصلاح العلاقة بين المؤمنين بعضهم البعض.

فالعبد إذا أصلح ما بينه وبين ربه، وأصلح ما بينه وبين الخلق؛ فقد فاز فوزاً عظيماً، وكان حينئذ أهلاً لأن يجاهد في سبيل الله، ويدعو إليه، فتتنزل عليه رحمته ﷻ. وعلى العكس، إذا قصر العبد في علاقته بالله تعالى كان ذلك سببًا في تحمله بالسيئات، وإبعاده عن طريقه تعالى.

وكذلك إذا أصلح العبد ما بينه وبين الله، ولكنه أساء فيما بينه وبين الناس، وظهر من أخلاقه معهم الحقد والحسد وسوء الظن، أو السخرية أو القطيعة والشقاق أو غير ذلك؛ فقد تحمل من الذنوب والخطايا والأوزار ما لا يمكن أن يكون سبباً في تكافله معهم، أو فيما يعود على المسلمين بالرحمة، وبتنزل نِعَم الله تعالى، ورفع البلاء عنهم،

---

١ - حديث خطبة الحاجة رواه أبو داود (٢١١٨) من حديث ابن مسعود، ط ١، دار الكتب العلمية، ١٣٣٨هـ، والحديث صححه ابن العربي في عارضة الأحوذي (٣/٢٧) والذهبي في المهذب (٣/١١٤٢).

ونصرهم، وهزيمة أعدائهم؛ لأنهم إن كانوا متقاطعين متدابرين، متباغضين متحاسدين، منشغلين بالدنيا وحب النفس وكانت هذه الدنيا سبب الوقيعة والقطيعة بينهم، فأنَّى تتنزل عليهم رحمة الله تعالى؟

من هنا تأتي أهمية معرفة اسمه ﷻ المنان؛ وذلك لما يحتويه من المعاني والآثار التي كلما ظهرت على المؤمن، كانت سبباً في قوة إخلاصه لله تعالى؛ فتقوى بقلبه إرادة وجهه تعالى.

وأما **الحظ الأول** للمؤمنين من هذا الاسم المشرف، مِنَنُّه تعالى عليهم، وأهم هذه المنن والعطايا هي توفيقهم إلى الطاعة والعبادة؛ ليخرجوا مما هم فيه من التقصير، وآفات النفس والتخلف عن السير إلى الله تعالى وضعف الإقبال عليه.

ثم **الحظ الثاني** هو كثرة عطائه ﷻ، وحظ العبد منه أن يكون متصفًا بهذه الصفة من صفات الرب، وهي كثرة العطاء، فيوصل عطاءه إلى خلق الله تعالى بغير مَنٍّ ولا انتظار أجر، أو عوض أو ثناء أو مدح منهم؛ فهو ينتظر ثناء الله تعالى ومدحه، وعوضه وعطاءه ورحمته.

وبعد:

فإننا نرجوا من قاريء الرسالة الدعاء لفضيلة الشيخ وللمسلمين، ونسأله ألا نعدم منه نصحاً أو إرشاداً أو توجيهاً، كما نرجوا أن ينشر علم هذا الكتاب بين أهله وإخوانه باتصافه بما فيه من خير أولاً، ثم دعوتهم بالقول ثانياً.

ونسأل ربنا الكريم الحليم المنان الغفور الرحيم، أن يغفر لنا زللنا، وأن يرحمنا ويعفوا عنا، وأن ينفع بهذا الكتاب قائله وناشره والناظر فيه والداعي لما فيه من خير، راجين في وجهه الكريم ﷻ أن يمنَّ علينا بقبول هذا الجهد الضئيل، وأن ينفعنا به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله تعالى بقلب سليم.

إخوانكم بمسجد الهدي المحمدي

الفصل الأول:

التعبد لله باسمه المنان

- أسنى طرق التعبد إلى الله تعالى أسماؤه الحسنى
- كيف يؤثر التقصير في التعبد لله باسمه المنان في واقع المؤمنين اليوم
- المعنى اللغوي لاسمه تعالى المنان
- المنان في حق الله تعالى
- عاقبة التعبد لله باسمه تعالى المنان



أولًا: أسنى طرق التعبد إلى الله تعالى أسماؤه الحسنى

لما كانت قضية التعبد لله تبارك وتعالى هي أهم القضايا في حياة المؤمن، كما قال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، كان من الأهمية بمكان أن يجتهد المجتهدون ويعمل العاملون ويتنافس المتنافسون في مضمار الوصول إلى الله تعالى ليتحققوا بتلك العبودية، وليوحدوا ربهم، ويدعوه ويتعلقوا به ويتنعموا بالقرب منه ﷻ في الدنيا والآخرة.

ولقد مَنَّ الله ﷻ على خلقه بأن أرشدهم إلى طريق الوصول إليه والتعبد له، وكان من أفضل أنواع التعبد إلى الله تعالى، ومن أيسر الطرق الموصلة إليه وأحسنها ، بل هو أحسنها على الإطلاق، التعبد بالأسماء الحسنى والصفات العليا كما قال:﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، فمن لم يسر في هذا الطريق لم يسر في العبودية المطلوبة لله تعالى.

فمدار فلاح المؤمن وسعادته موقوف على معرفته بأسماء الله تعالى وصفاته، وعلى سيره في طريق التعبد لله تعالى بهذه الأسماءه الحسنى، وذلك لأن العبد إذا لم يعرف ربه بأسمائه الحسنى فكيف يدعوه؟ وكيف يوحده ويفرده بالعباده ويرفع إليه ﷻ حوائجه؟

ثم إن الله تعالى يحب أن تظهر آثار أسمائه في خلقه، فيحب أن يظهر آثار اسمه الغفور؛ يذنب الناس فيستغفرون ليغفر لهم، فتظهر آثار أسماء الله تعالى الغفور والغفار، ومثل ذلك في التوبة فتظهر آثار اسمه التواب بتوبته على عباده، وكذلك آثار الرزاق

برزقه وتفضله على عباده، وآثار الجود والكرم، وهكذا في كل الأسماء الحسنى، فإذا تعلم العبد هذه الأسماء وأخذ حظه منها ودعا ربه بها كان ذلك سببًا في محبة الرب جل وعلا لعبده وتقريبه له.

وأهمية هذه الآثار تكمن في أمرين:

- الأول: آثار أسماء الله الحسنى لها مواضع تظهر فيها، وأولها ظهورها على قلب العبد، فإذا أخذ العبد بحظ وافر منها فإنه يضع دواء الرب ﷻ على داء قلبه، ليظهر عليه أثر الاسم بأكثر مما يتخيل أو ينتظر.
- الثاني: آثار أسماء الله الحسنى، هي ثمرة كل علوم الإسلام ، وهي التي يستغني بها المؤمن، فإذا ما اطلع على معانيها وفكر فيها، وجاهد نفسه على أخذ حظه منها؛ تنزلت عليه بركاتها وكان في أعلى الدرجات من ولاية الله تعالى .

وهذا هو المعنى المهم الذي يتضح في اسمه ﷻ المنان؛ حيث يكون ذلك سبباً لتنزل بركة هذا الاسم على قلب المؤمن، وسبيل ظهور آثاره عليه.

فهذه الآثار من بركات اسمه المنان على المؤمن، لا تعود عليه إلا بعبادة الله تعالى بهذا الاسم، وتوحيده به، ودعائه به، وجريانه على قلبه ولسانه، وكذا كل الأسماء الحسنى، فلا يعطل لسانه ولا قلبه أبداً عن القيام بهذا الحق من توحيد الرب بهذه الأسماء، فذلك طريقه لأخذ حظه منها.

ثانيًا: كيف يؤثر التقصير في التعبد لله باسمه المنان في واقع المؤمنين اليوم

إن صلاح المؤمن في الحياة الدنيا ونجاته في الآخرة موقوف على إصلاح ما بينه وبين الله، و ما بينه وبين الخلق، فإذا لم يظهر الصلاح فيما بينه وبين الله انتهى الصلاح بينه وبين الخلق، وباءت محاولاته بالفشل. وإذا حاول إصلاح ما بينه وبين الله، وكان ما بينه وبين الخلق سوء الحال من الرياء والمن وعدم الإخلاص لله تعالى؛ عاد عليه ذلك بإضعاف ما بينه وبين ربه؛ فأقرب الناس من النبي ﷺ منزلة هم أحاسنهم أخلاقًا [(1)]، ومن هذه الأخلاق الحسنة التي أمر بها الشارع هي ما يحتويه اسمه المشرف المنان، فهذا الاسم المعظم يحوي معانٍ كثيرة من الأخلاق الحسنة، من لم يتحقق بها لم يتحقق باسمه المنان.

وواقع المؤمنين اليوم يدل على تقصيرهم في التحقق بمعاني وآثار هذا الاسم، ولذلك مظاهر كثيرة نجملها فيما يأتي:

---

١ - رواه الترمذي (٢٠١٨) وقال حسن غريب من هذا الوجه، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/١٠٤، رقم ٢٧٢)، وأحمد (٢/١٨٥ ، رقم ٦٧٣٥) ، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٢٦/٣٢)، وقال الهيثمي في المجمع (٢١/٨) : إسناده جيد . ولفظه (عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ).

الأول: في علاقة المؤمن بربه: فحال كثير من المؤمنين، فضلًا عن غيرهم، ظهور المنة في عبادتهم وأعمالهم الصالحة. فالمرء حين يمنُّ على ربه، أو تظهر من نفسه المنة في عمله، كصلاته وإنفاقه وبذله، أو قيامه وصيامه، -وذلك مذموم أشد الذم-، تكون هذه المنة سببًا في إبعاده وتأخيره عن الله ﷻ، وفي سوء العلاقة بين ذلك المان وبين الله ﷻ، وسبب حبوطِ عمله.

والسبب في ذلك أن الذي يمن إنما ينسى مِنَّة الله وينسى فضله وإحسانه ﷻ، وينسى أن الله تعالى هو الذي أعطاه كل شيء، وسخر له كل شيء، وأن ما به من نعمة فمن الله تعالى كما قال: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣]؛ ثم هو يفخر بها، ويمنُّ ويتعالى ويتكبر، وينسبها إليه قائلاً: أنا صليت، وتصدقت، وأعطيت، وأنفقت، وكل ذلك على غير الحقيقة! بل كما قال الله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٧] فالمنة له سبحانه في كل شيء.

لذلك لما قال رسول الله ﷺ للصحابة رضوان الله عليهم: **« ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بي؟ قالوا: الله ورسوله أمنّ »** [1]، فالله ﷻ ينسب كل شيء لنفسه؛ فهو المالك والرازق

---

١ - رواه البخاري (٤٣٣٠) ومسلم (١٠٦١) مختصرًا، وأخرجه مطولاً الإمام أحمد في مسنده (١١٣٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري، وقال الحافظ العراقي في محجة القرب (ص٢٥٩): صحيح، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٢) وقال: رجال الرواية الأولى رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق، وقد صرح بالسماع. ولفظ الحديث بطوله: (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ

والواهب والجواد على الحقيقة، وهو التواب البر الرحيم، القادر القوي؛ ثم إذا بالمرء الفقير ينسب لنفسه القوة والعلم والمال والجاه والسلطان، وينسب لنفسه ما لو أخذه الله تعالى منه لصار فقيرًا طريدًا لا قيمة له، ولا وزن ولا شأن!

فعندما ينسب ذلك لنفسه، ويراها شيئاً؛ **فذلك نسيان منَّةِ الله**، وجحود نعمته، وذلك سبب الجفاء بينه وبين الله ﷻ، لأن هذه الرؤية للنفس سببٌ لبعد المرء عن الرب، وسقوطه بسببها من عين الله تعالى.

حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ. قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي وَمَا أَنَا. قَالَ : فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ. قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ؟! أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالاً فَهَدَاكُمْ اللَّهُ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟ قَالُوا بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ. قَالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالُوا وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ؟ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ. أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ. قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقْنَا) .

إذ هو ساعتها ينسى مبادئ ربوبية الرب وينسبها لنفسه، والله تعالى يقول: ﴿ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ١٦٥] وأنت تقول: أنت قوي، الله تعالى يقول: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ [محمد : ٣٨] فتقول: أنت غني ، والله تعالى يقول: ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد : ١٦] وأنت تقول: أنا أقدر وأنا أفعل، ودع لي هذا الأمر، وسأقضيه أنا، وسأفعل لك هذه المصلحة، وسأسعى لك فيها واطمئن... إلخ.

الثاني: في علاقة المؤمن بالخلق: فكل النفوس- إلا من رحم الله تعالى- لا بد أن تمن بالقلب أو باللسان. فيقول المرء في قلبه: قد فعلت له، ووقفت إلى جواره، وقدمت له، وكذا وكذا، وعندما صادفني مثل ذلك لم يفعل ولم يقف وتعلل واعتذر، ولم يسأل عني، ولم يذكر هذه الأيام التي كنت فيها إلى جواره، ولم يذكر ما قدمت وفعلت له وما رفعت عنه وما ساعدته فيه. والأمر الثاني: المن باللسان، بأن يعدّد على الخلق النعم والصنائع التي اصطنعها لهم من معروف أو خير، ولا يدري أن هذا المعروف إنما كان من توفيق الله له؛ فلا فضل له فيه.

والملاحظ أن النفس لا تطاوع المرء أبدًا –إلا من رحم الله- في اتقاء هذا المن المذموم ؛ لأنه عندما يجيء امتحان المنة، تظهر النفس على حقيقتها! فأنت تعطي لفلان، أو تهبه، أو تقف له، ثم إذا ما عاملك بنقيض عملك، أو لم يقف إلي جوارك، أو إذا احتجت إليه ولم يسعفك، أو غير ذلك مما يحدث بسبب أنه كان مشغولاً، أو بسبب "قلة الأصل" وقلة الدين والأخلاق الفاسدة المتفشية الآن، فإذا بك تنقلب وتقول: فعلت

وفعلت وفعلت ولم يفعل! فهذا هو الامتحان، فنفسك لا تطاوعك على أن تسكت، وتقول - بينك وبينها - : الحمد لله أنا لم أفعل شيئا لأتكلم، وأنتظر الأجر من الله، والله ﷻ يعلم قصدي، ولا يمكن أبدًا أن أتحدث بما فعلت!

لذلك تجد المانّ وقد ساءت علاقته بالخلق؛ لأن المن بالعطية على سبيل التقريع مذموم؛ لأنه يمن عليهم بما ليس له فيه فضل، ولا نصيب من قدرة أو خلق، كيف يمن عليهم بالعلم أو المال، أو أنه أعطاهم، ووقف لهم، أو قضى لهم حاجة، أو سهل لهم أمرًا، أو توسط لهم في شيء، أو غير ذلك مما يمكن أن يقوم به أحد لإخوانه، **وهو بهذا المن يحبط عمله، ويذهب أجره**، لقوله تعالى: ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] ، ولو قال قولاً معروفًا أو سكت لكان أولى من أن يعطيهم ويمنُّ، كما قال تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾ [البقرة : ٢٦٣]، ثم ذكرهم ﷻ بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٣]، ولقول رسول الله ﷺ من حديث أبي ذر: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مراراً؛ قال أبو ذر: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟! قال: «المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»[1] والمنان: الذي لا يعطي

١ - رواه الإمام مسلم (١٠٦).

شيئًا إلا مِنَّةً، وقال أيضًا ﷺ:«لا يدخل الجنة خب ولا منان ولا بخيل»[1]، وهذه الآيات والأحاديث ليعلم المؤمن قبح هذا الخُلُق، وما قبحه الله ورسوله إلا لكونه مفسدًا لدينه كما ذكرنا.

الثالث: المان يفسد نفسه عليه؛ لأنه إذا رأى نفسه متى يرى ربه ؟ وإذا رأى النعمة منهُ فمتى يرى نعمة الله؟ وإذا رأى الغنى به فمتى يرى غنى الله؟ يعني: متى تتعبدِ الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا إذا كنت تنسبها لنفسك؟ متى تعبده تعالى بأنه هو القادر؛ فتنسب له القدرة، وتعبده بأنه هو القوي فتنسب له القوة، وتعبده بأنه هو الغني؛ فتنسب له الغنى، متى تعبده ﷻ وتثني عليه بأسمائه الحسنى في كونه ﷻ هو المحسن الجواد؛ ومتى تدعوه بأنه يفرج الكرب، ويستر العورات، ويرفع النوازل،فكل ذلك يفسد النفس ويصعب قيادها إلى الله تعالى.

إن هذا المان الذي يرى نفسه مآله إلى الكبر، والعجب بنفسه وماله وعلمه وقدرته وغيرها مما آتاه الله تعالى، وذلك هو الخسران قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر : ٣٥]، فطبع الله على قلبه، فخسر الدنيا والآخرة، وكما ورد عن

---

٢ - رواه الإمام أحمد في مسنده (٣٣) والترمذي (١٩٦٣) وقال حسن غريب، كلاهما يرويه من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهذه رواية الترمذي، ورواه النسائي (٥٦٧٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحسَّن الحديث الحافظ ابن حجر في هداية الرواة (٤/٤١٤) وقال الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير (١١/٩٩): إسناده صحيح.

النبي ﷺ: «لا يدخل الجنةَ من كان في قلبه مثقالُ ذرة من كِبْر »[1]، وكذلك: «بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه مرجل جمته إذ خسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة»[2].

فالمؤمن لا يصلح إلا بكونه عبدًا لله تعالى متيقناً أنه لا يملك لنفسه موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا يملك لها كبيرًا ولا صغيرًا، ولا قليلاً ولا كثيرًا، فيصبح مفتقراً إلى الله تعالى فقرًا فيه غناه، ضعيفاً إليه ضعفاً فيه قوته، ذليلاً إليه ذلاً فيه عزُّه، إلى آخر ما ذكر في معاني الأسماء الحسنى.

وهذا معنى قوله: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلا تَحَوُّل لك ولا قدرة على فعل الطاعة أو ترك المعصية إلا بالله ﷻ، فإذا لم تكن متصفاً بذلك فلن تكون عبداً لله ﷻ قد حقق معاني العبودية التي أمرك ﷻ بها، وخلق العباد لأجلها: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦].

---

١ - رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.

٢ - رواه البخاري (٥٧٨٩) ومسلم (٢٠٨٨) كلاهما يرويه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثالثًا: المعنى اللغوي لاسمه تعالى المنان

السبب في الإشارة للمعانى اللغوية هو التأمل والفهم وربط المعاني الموجودة في اللغة بتلك المعاني في حق الله تعالى، فإذا ما حفظت هذه المعاني التي وردت في معنى المن؛ وجدت أحسن الحسن فيها هو المنسوب إلى الله تعالى، ومن ناحية ثانية أن تتحقق بما ينبغي لك من هذه المعاني، وأن تقلع عن النوع المذموم منها.

المعنى اللغوي[1] الأول: منَّ عليه، يَمُنُّ منًّا، يعني: أحسن وأنعم. فيكون معنى أحسن وأنعم في حق الله ﷻ: أن الله تعالى أحسن للمرء أعظم الإحسان، وأنعم عليه أجمل الإنعام .ويكون حظك الأول أن تأخذ من هذا الإنعام والإحسان، والثاني أن تتشبه بصفات الرب ﷻ؛ فتكون من المنعمين المحسنين كما هي عادة الرب مع عباده ﷻ.

والاسم من المن: المِنَّة وهي العطية، والمَنّ أي: العطاء، فيكون المعنى أحسن وأنعم بأحسن العطاء.

والمعنى الثاني: مَنّ عليه، يعني: قَرَّعَهُ بمنّته، وهذا هو المعنى المذموم، يعني: أخذ يعدد له العطاء الذي أعطى، والنعم التي أنعم عليه بها، ويَمُن عليه إذا أعطاه الصدقة، أو قضى له مصلحة، أو ذهب له في حاجة، أو وقف إلى جواره في سراء أو في ضراء، فيقول: قد وقفت، وقد أعطيت، وقد فعلت لك كذا وكذا، نسيت كل هذا ؟

---

١ - بتصرف من كتاب الأسنى في شرح الأسماء الحسنى للقرطبي

والمِنَّة تهدم الصنيعة فتقريع المرء بالعطية يهدمها، والصنيعة: أن تصنع له فعلاً يكون لك يد عنده به، وإذا ما مننت عليه بهذه الصنيعة (العطاء ، النعمة) فإنك تهدم ذلك.

والمعنى الثالث للمَنُّ: القطع أو النقص كما في قوله تعالى: ﴿ **لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ** ﴾ [فصلت : ٨] يعني: لا منقوص، ولا مقطوع.

أما الاسم المَنُّ، وهو الوارد في قوله ﷻ: ﴿ **وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ** ﴾ [البقرة : ٥٧]، وهو شيء حلو كالترنجبين، يعني: ثمرة الكمأة التي تنبت في الصحراء ، والتي منها شفاء العين كما في حديث سعيد بن زيد:«**الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين**»[1] وهو حديث يستخدم في الطب النبوي، فخلاصة هذه الكمأة تستعمل كقطرة للعين وتكون سببًا لشفائها بإذنه تعالى.

وهناك لفظة أخرى وهي **المُنّة** بالضم ومعناها: القوة، فمعنى: لا مُنة له ولا منعة يعني: لا قوة له ولا اعتصام بأحد يمنعه.

رابعًا: المنان في حق الله تعالى

قال الزجاج: المنان: فَعّال من قولك: مننت على فلان إذا اصطنعت عنده صنيعًا وأحسنت إليه، **والله ﷻ منان على عباده بالإحسان والإنعام والرزق لهم** ، وفلان يمن على

١ - رواه البخاري (٤٤٧٨) ومسلم (٢٠٤٩).

فلان إذا كان يعطيه ويحسن إليه. قال الخطابي: وأما **المنان فهو كثير العطاء**، وقال الحَليمي: ومنها المنان، **وهو عظيم المواهب** ﷻ؛ **فإنه أعطى الحياة والعقل والنطق، وصور فأحسن الصور، وأنعم فأجزل، وأثنى النعم، وأكثر العطايا والمنح**، قال تعالى وقوله الحق: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وهذا المعنى الأخير به قضية مهمة، وهي تعديد منن الله على المؤمن وإنعامه عليه وعطاياه الواصلة إليه، وعظمة ذلك كله عليه؛ ليعلم أنه محاط بنعمة الله تعالى ومنته وعطاياه العظيمة وإحسانه ورزقه قبل أن يولد وبعد أن ولد إلى أن ينتقل إلى الله، ويرزق الحياة مع النبيين والصديقين، انظر إليك بغير عقل ماذا تكون؟ بغير حياة مستقرة ماذا تكون؟ بغير نطق ماذا تكون؟ أليس قادرًا على أن يحرمك النطق؟ أليس قادرًا على أن يحرمك الحياة؟ أليس قادرًا على أن يحرمك العقل؟

قال الأنباري: وفي أسماء الله تعالى الحنان المنان يعني: **الذي ينعم غير فاخر بالإنعام**، وقال في موضع آخر في شرح المنان معناه: **المعطي ابتداءً، ولله المنة على عباده، ولا منة لأحد منهم عليه، تعالى الله علوًّا كبيرًا**، ولما كان الباري ﷻ يدرّ العطاء على عباده منًّا عليهم بذلك وتفضلاً كانت له المنة في ذلك. وكثيرًا ما يرد المن في كلام العلماء بمعنى

الإحسان إلى من لا يستثيبه ولا يطلب الجزاء عليه(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٩].

ومن أمثلة المن المحمود بأن يكون عطاء المؤمن لوجه الله تعالى، لا لنيل عوض من الدنيا، قال ﷺ: « **إن من أمنّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر** »(٢) حتى إن أبا بكر ﷺ بكى وقال: أبو بكر وماله وأهله وولده فداء للنبي ﷺ.

---

١ - وقد ذكر القرطبي قصة توضح هذا المعنى، يقول: روي عن بعض العقلاء من الكرماء أنه أتى الجُنيد رحمه الله تعالى (وهو: الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي ثم البغدادي، إمام في الزهد والورع والعبادة ، وكان صاحب علم وعمل، من المتكلمين الفصحاء، توفي سنة (٢٩٧) هـــ) بمائة دينار -وهذه أيامها كانت كثيرة- فقال: أنفقها على نفسك، فقال: إن في بعضها كفاية، يعني: لو أخذت ثلاثة أو أربعة دنانير يكفي، وظني أن يمتحنه ليرى أنه ممن يؤخذ منه ولا يُمن أو لا ؟ فقال: يا شيخ ما أعطيتكها لتنفقها على الخل والبَقْل- هذه الأمور التي يأكلها الزاهدون في الدنيا - وإنما لتأكل بها الطيبات من الأطعمة، وإني لأرجو أن يكون أخذها أفضل من ردها، لما توصل إلى قلبي من الراحة، وتقلدني - تضع في رقبتي - بذلك المنة أن قبلتها مني، فقبلها - الجنيد و لم يكن يأخذ من أحد شيئًا البتة – وقال له: من مثلك يؤخذ، وأنشده :

إذا تكرمت لا تمنن به أبدًا لا خير في كرم من عند منان

فلما كان أخذها عند المعطي أفضل من أن ترد، لما يكون له بها عند الله من الدرجة والثواب مهما كانت قيمتها، قبلها منه الجنيد .

٢ - رواه البخاري في صحيحه (٤٦٦) ومسلم (٢٣٨٢) كلاهما يرويه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، ولفظه (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: خَطَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ إِنْ يَكُنْ اللَّهُ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْعَبْدَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا. قَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا تَبْكِ إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي= =صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ

المِنّة في حق الله تعالى: التفاخر بالعطية على المعطى، وتعديد ما عليه، والمعنيان صحيحان في حق الله تعالى، سواء أعطى، أو مَنَّ على عباده، فله المنة عليهم.

أما العبد فليس له إلا أن يعطي بغير ثواب يُنتظر إلا من الله؛ لأن هذه النعم إنما هي من الله، وثوابها من الله، ويجب أن يكون فعلها لوجهه ﷻ، فإن كان لغير وجهه ضاعت النعم، وخسر المرء نفسه في الأولى والآخرة لأن هذه المنة تبطل العمل، كما قال: ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ويتصف أيضًا بنوعي المنة الإنسان لكن يتصف بالمعنى الأول عن طريق المدح، وبالمعنى الثاني - وهو التقريع بالعطية، وتعديد النعمة - عن طريق الذم.

خامسًا: عاقبة التعبد لله باسمه تعالى المنان

فإذا كنا نتكلم عن اسمه المنان، فينبغي أن يكون السؤال، كيف يتحقق المؤمن بتوحيد الله باسمه المنان؟ فإذا كان الله تعالى هو كثير العطايا، وكثير المنن والأفضال والإنعام عليك، كيف لا تؤهل نفسك إلى أن تأخذ منها؟ يعني: أنت **كيف لا تقف على باب الله؛ لتحصل من هذه العطايا؟** أنت في حاجة إلى هذه العطايا وفقير إليها في أخلاقك، وفي مالك، وفي نفسك، وفي ولدك، وفي صحتك!

مُتَّخِذًا خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ).

ألسنا فقراء إلى الله تعالى؟ فمنا الفقير في فهمه، والفقير في علمه، والفقير في جسمه وبدنه، والفقير في صحته، والفقير في أخلاقه، والفقير في عباداته وقيامه وذكره وصيامه وقرآنه، من الذي يقويه؟ من الذي يعطيه؟ من الذي يتفضل عليه؟ ومن الذي يغدق عليه النعم لا ينتظر فيها ثوابًا، ولا جزاءً، ولا شكورًا؟ ومن الذي يعطيه عطاء لا يخشى الفقر؟ عطاء لا يعطيه أحد؟ كما قال: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤] كيف تحرم نفسك هذا العطاء من الله تعالى؟ إنك لو وقفت ببابه، وأخذت شيئًا من العطاء الذي يعطيه، ومن الهبات التي يهبها ﷻ؛ رأيتك وقد تغيَّرت أحوالك، وحسنت أخلاقك، وأعمالك وعباداتك، وزاد إخلاصك وإقبالك وتوحيدك، إلى كل هذه المعاني التي نحن فقراء إليها كما قال الله: ﴿ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥].

المرء فقير في دينه، وعمله وعبادته وإقباله وإخلاصه لله تعالى، فقير في دعوته إلى الله تعالى في نصرة الإسلام ورفع رايته، إلى آخر الأعمال التي كانت من سيرة النبي ﷺ، ألم تكن أسماء الله الحسنى هي الزاد التي يتزود بها ﷺ ليحقق كل هذه الأحوال الحسنة؟!

كانت إذن أهم عواقب التعبد لله تعالى باسمه تعالى المنان : **الافتقار إلى الله تعالى**، وقد أشرنا إلى معنى الافتقار في الأسماء الحسنى التي أشرنا إلى شيء حسن من معانيها من قبل[1].

العاقبة المهمة التالية هي أن يعترف المؤمن لله تعالى ولرسوله بالنعم، **ويرى لإخوانه الفضل عليه، فإذا أعطيت أحداً من خلقه مما أنعم الله به عليك، فلا تمن به، بل تستصغره وتتناساه، وترى الفضل له في قبوله منك**، لأن الله تعالى قد هيأه لأن يقبل ذلك منك فجعل الله تعالى له المنة عليك في أن أخذت الثواب من ورائه، وفي أن رفع لك الدرجة به، وفي أن أجزل لك العطاء ﷻ في مقابل عطائك.

وسوف تُبْسَطُ بإذن الله تعالى في فصول هذه الرسالة هذه العواقب لتظهر أهمية التعبد باسم الله المنان ليكون وسيلةً عظيمةً من وسائل إصلاح النفس والإصلاح بين المؤمنين، ليكون ذلك سببًا في فتح الله تعالى لهم وأن يستعملهم ﷻ في رفع رايته وإعلاء كلمته ونشر توحيده وعبادته.

---

١ - ورد ذلك في شرح اسمه الأول والآخر والظاهر والباطن ﷻ، واسمه الغني ﷻ كذلك، وما ترتب عليه في المقدم والمؤخر ﷻ، وما ترتب عليه في القابض الباسط ﷻ.

الفصل الثاني:

اسم الله المنان في القرآن والسنة

○ الدليل على اسم الله المنان

○ كيفية الانتفاع بخطاب القرآن الكريم

○ الشرح الإجمالي لآيات المنة في القرآن الكريم



أولًا: الدليل على اسم الله المنان

لم يرد اسم المنان في كتاب الله تعالى، وإن كان ورد بصيغة الفعل في آيات كثيرة، **وإنما دليل هذا الاسم المعظم إنما هو من سنة النبي ﷺ**، إذ القرآن والسنة وحيٌ واحد إلى النبي ﷺ.

ففي الحديث الصحيح الذي رواه أنس رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً، ورجل يصلي، ثم دعا: **اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم**. فقال النبي ﷺ: **«لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى»**[1].

وورد في التنزيل فعلاً، وهو: « منَّ » ومشتقاته المتعلقة بالله تعالى، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، والثانية: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧]، والثالثة قوله ﷻ: ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ٩٤]، وورد في آيات أخرى كثيرة سنشير إليها بإذنه تعالى.

---

١ - رواه أبو داود (١٤٩٥) والترمذي (٣٥٤٤) والنسائي (١٣٠٠) والحاكم في المستدرك (٦٨٣/١) حديث (١٨٥٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه ، وابن حبان في صحيحه (١٧٥/٣) حديث (٨٩٣) وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي.

ويرجع المنان إذا كان مأخوذًا من المن الذي هو العطاء **إلى أوصاف فعله**، وإذا كان مأخوذاً من المِنة التي هي تعداد النعم والافتخار بفعلها **إلى صفة كلامه** ﷻ.

فائدة: وهي متعلقة بحديث النبي ﷺ الدال على اسمه المنان، ينبغي على المؤمن إذا سمع هذا الكلام من حديث النبي ﷺ أن يحفظه، حتي إذا أراد أن يدعو، دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، فيكون ذلك حينئذ خزينًا عظيمًا في قلبه ودعائه، يستجلب به إجابة الله وعطاءه ومَنَّه، ويرجو به إجابة المسألة، وتفريج الكرب.

ثانيًا: كيفية الانتفاع بخطاب القرآن

إن أفضل الطرق للتحدث عن أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته المشرفة هو القرآن الكريم. وذلك لأن المؤمن عندما ينظر في كلام الله تعالى يرى المعاني التي يخبر الرب ﷻ بها عن نفسه، فهي أصدق إخبار من الله ﷻ عن صفاته العليا وأسمائه الحسنى.

لذلك قبل الخوض في تلك الآيات المباركات المتعلقة باسمه المنان ﷻ، نوضح قاعدتين ينبغي أن يفهمها طلبة العلم، والسائرون إلى الله تعالى، السعاة في طلب الحق ﷻ؛ لأن أصحاب التعبد بالأسماء الحسنى هم السعاة في طلب الحق رب العالمين.

وهاتان القاعدتان هما:

الأولى: الأصل في أخذ العبد لكلام الله تعالى هو قوله: ﴿ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم: ١٢] فالحق تبارك وتعالى لم يخاطبنا بهذا الكلام **إلا لنعبده به، وهذا ما ينطبق على آيات الأسماء الحسنى، وهو أول ما ينبغي للمرء الحرص عليه عند علمه بالآيات التي سيرد شرحها**. وأهمية ذلك للعبد أن يعلم علم اليقين أنه هو المخاطب به، فلا ينبغي له البتة أن يقرأ كلام الله وكلام رسوله ﷺ كأنه يقرأ جرائد وصحفاً، أو أن يسمع هذا الكلام ولا ينزل هذا السمع منه بمكان، كما قال تعالى: ﴿ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر : ١٨] فتسمع هذا الكلام **وفي قلبك وعقلك وذهنك وفهمك وكل حواسك أنك المخاطب بذلك**، كما كان صحابة النبي ﷺ على هذه الحال، إذا سمعوا آية علموا أنهم المخاطبون بها، وأن الخطاب ليس لغيرهم، بل لهم هم، فكانت الجولة الثانية لهم أن يسارعوا إلى تحقيق هذه الآية، والاجتهاد على القيام بما تطلبه منهم فيسارعون بالمجاهدة على التخلق أو الائتمار، أو الانتهاء، على حسب الخطاب الذي خاطبهم الله به. فإذا قال سبحانه: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٤٣] فمن المخاطب بها؟ المسلمون المؤمنون؛ ثم ما يتعلق بهذا الخطاب هو المسارعة إليه كما قال ﷻ: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وكما قال: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦].

الثانية: **أن يأخذ المؤمن حظه من معاني هذه الآيات**، ويتخلق بهذه الأخلاق. فإذا علم المؤمن أن الله تعالى منان كثير العطايا، يعطي ولا ينتظر المثوبة، فكذلك ينبغي أن يكون المؤمن، يعطي ويجزل العطاء، فهو كثير العطايا كَرَبِّه ﷻ ونبيه ﷺ، غير منتظر مثوبة ولا جزاء، ويجاهد نفسه على هذا الخُلُق العظيم.

ثالثًا: الشرح الإجمالي لآيات المنة في القرآن

ننظر الآن في الآيات التي وردت تحمل معاني هذا الاسم المشرف، لنتبين كيفية تناول القرآن الكريم هذه الصورة المتكاملة الجميلة لهذا الاسم من أسماء الله تعالى، كعادة القرآن في ذكر هذه الأسماء الحسنى. ثم ننظر في تلك المعاني، لنرى بها منَّ الله تعالى على أهل الإيمان من نعمه وعطاياه التي إذا تفكرت فيها وجدتها أعظم النعم وأتم العطايا فلو قضيت عمرك وأعمارًا متطاولة في شكر قليل منها لم تبلغ شيئاً!

ونبدأ بالتفسير الإجمالي للآيات لنتفقه شيئًا في أسماء الله الحسنى؛ فالتفسير ليس هو المقصود، وإنما التفسير لبيان كيف ذكر الله تعالى أسماءه الحسنى في القرآن الكريم، فيتعلم المؤمن من ذلك كيف يوحد ربه بهذه الأسماء الحسنى.

والمطالع لآيات القرآن الكريم التي تكلمت عن قضية المنة يستطيع أن يقسمها إلى ثلاثة أقسام:

- **الأول: الآيات التي تبين على من يمنُّ الله ﷻ.**
- **الثاني: الآيات التي تبين أنواع منن الله تعالى على خلقه.**
- **الثالث: الآيات التي تبين جزاء المنان ﷻ لعباده**

وقد أُجمل ذلك في قوله تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ **وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ** ﴾ [إبراهيم : ١١] ، فالله ﷻ هو صاحب المنن والأيادي والإنعام على خلقه، وهو سبحانه **يمُن بما يشاء على من يشاء** .

فائدة: ذكرنا أن المؤمن مخاطب بكل آية يقرؤها، مطالب بالعمل بها، فعندما تقرأ: ﴿ **وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ** ﴾ [إبراهيم : ١١] تستفيد من ذلك أن هناك من يمن ﷻ عليهم، وهناك من لا يمن عليهم؛ هناك من أعطاهم بالعدل بحيث لم يظلمهم شيئًا، وهناك من زادهم درجات في المن ، والعطاء، والإرفاق ﷻ. وحظك الذي ينبغي أن تأخذه من هذه الآية أن تكون من هؤلاء الذين يمن الله تعالى عليهم، وأن تدخل في هؤلاء الذين شاء الله لهم المن، والله تعالى لا يمن على أي أحد، بل على من يشاء؛ فإذا أردت أن تكون ممن يشاء؛ فلا بد أن يتحقق فيك أنك تستحق بفضل الله تعالى أن يمن

عليك؛ فلا بد أن تجاهد نفسك وأن تأخذ في الطريق إلى الصفات التي بها يمن الله عليك.

القسم الأول: الآيات التي تبين على مَنْ يَمُن الله تبارك وتعالى

ونشير سريعًا لهذه الآيات، ليتعلم المؤمن كيف يتعرض لمنِّ الله عليه ليكون من عباده الذين يمن عليهم ﷻ.

المنة على الأنبياء والرسل

أول من منَّ الله تعالى عليهم هم أنبياؤه ورسله؛ لذلك قال تعالى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ١١]؛ إذ إن أعظم المنن من الله تعالى على عباده منة النبوة والرسالة، فلا منة بعدها، ولا منة قبلها، فإذا منَّ عليهم بهذه المنة فتلك الدرجة العليا.

والآية الأولى قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ [يوسف: ٩٠] وهذه اللفظة الكريمة من رسول ونبي كريم على الله تعالى، جاءت بعدما قصت الآيات ما حدث من الحوادث العظيمة في قصة يوسف عليه السلام. فبعدما قابل يوسف عليه السلام محن الله تعالى بالصبر والثبات وعدم معصيته والخروج عن طاعته، أورثه الله تبارك وتعالى مِنناً كثيرة، بالاجتماع بعد الفرقة، والائتلاف بعد البُعد الطويل، والعلو والتمكين، بما صبر واتقى ربه ﷻ، وبما أحسن في حق الله ﷻ، كما قال

تعالى:﴿ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠] فكانت العاقبة للتقوى، لذلك قال إخوته: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ [يوسف: ٩١].

فائدة: في هذه القصة عبرة لنا الآن، فبسبب التقوى والصبر، آثره الله عليهم، والمؤمنون اليوم مطالبون **بأن يتعرضوا لهذه المنة من منن الله تعالى بتحقيق التقوى والصبر والإحسان**، ليكون لهم كذلك حسن العاقبة في الآخرة، كما قال: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف: ٥٧].

الآية الثانية: قوله ﷻ لموسى -عليه السلام-: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه: ٣٧-٣٨] المنان قد مَنَّ على مَنْ؟ على سيدنا موسى عليه السلام، وذكره بالمنة الأخرى، وانظر لهذا الفارق في الآيات القرآنية الجميلة في الآيتين. يقول: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾ [طه: ٣٧] ومعناها أن هناك منة قبل ذلك، ما هي المنة التي قبل ذلك؟

يتبين ذلك من العطف في قوله ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ ﴾ [طه: ٣٧] فهي معطوفة على قوله: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٦] وهذا السؤل ماهو؟ هو قول موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴾ [طه: ٢٥-٣٠] عندما قال له الرب جل وعلا:﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٢٤]. وهذه المنن من شرح الصدر

وتيسير الأمر وغيرها من أعظم المنن وأكملها. ومن أعظم الصفات في سيدنا موسى - عليه السلام- أن تمنى لأخيه أن يكون نبيًا ! ترى أكان شيء أعظم من ذلك يتمناه له؟! وعندما يعطي له المولى هذا العطاء، هل هناك منة أعظم من هذه المنة؟ لو تمنى له شيئاً آخر تراه يُساوي هذه المنة العظيمة؟! ولنتأمل هذه النفوس العالية عندما تطلب لإخوانها ماذا تطلب.

لذلك قال: ﴿ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۝ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ [طه: ٣٠-٣٥] والله تعالى يسمع له هذه الأدعية كلها، وبعد ذلك، يقول: ﴿ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٦] ثم ماذا؟ ﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴾ [طه: ٣٧] ما هذه المرة الأخرى؟ ﴿ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾ [طه: ٣٨-٣٩] إلى آخر القصة .

<u>فائدة</u>: إذا قيل: أيها أعظم، المنة الأولى أم الثانية؟ أجيب: المنة الثانية وهي: ﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ۝ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه: ٣٧-٣٨] وذلك لأنها منَّة بغير طلب من موسى، على العكس من المنة الأولى التي كانت بسؤال من موسى ودعاء منه. أيها أحرى بالإجابة؟ التي بسؤال أو التي من غير سؤال؟ التي بسؤال أحرى أن تجاب؛ لأنه من غير سؤال أعطاه، فإن سأل وتضرع، ألا يجيبه ﷻ ؟ يكون أحرى بالإجابة من الله تعالى بعد أن سأله .

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَٰهُمَا ﴿١١٧﴾ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الصافات: ١١٤-١١٨]، وهذه الآية تذكير بمنة الله تعالى على موسى وهارون عليهما السلام، وهما أئمة الدنيا في ذلك الزمان، وفيها كذلك بشارة لأهل الإيمان، فإن كان ذلك قد وقع لأئمة الدنيا حالها، فإن ذلك الواقع يمكن أن يحدث للمؤمنين في كل زمان ومكان إذا ما تحققوا بالأسباب الموصلة لذلك.

المنُّ من الله تعالى عطاء لا حد له

وهي **الآية الثالثة** في المنة على أنبياء الله تعالى ورسله، وهي قول الله تعالى في المن والعطاء لسليمان -عليه السلام-: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص : ٣٩] . ولنتدبر هذا القول في شأن هذه العطية العظيمة لسليمان عليه السلام، فالمولى ﷻ أعطى عبدًا من عباده هذا العطاء الذي لم ولن يصل إليه أحد ولا يقول هذا القول إلا من له الملك، وله المنة، وله العطايا العظيمة ، وله كل شيء ﷻ، هل يستطيع ذلك الفقير أو غيره من ملوك الدنيا أن يقول لأحد: ﴿ فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٩]؟! من الذي يملك من الدنيا ما يعطي بغير حساب، أو يمنع بغير حساب، أو يهب بغير حساب؟ من؟ لذلك قال النبي ﷺ لما هم أن يربط ذلك العفريت من الجن: « ثم تذكرت

قول أخي سليمان ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٥] »[1].

فإن كان عندك ريب، أو شك في عطاء الله تعالى، وأنه يمكن ألا يصلك، أو لا يتسع لأغراضك أو تمنياتك في الدنيا، فانظر ماذا أعطى لسليمان عليه السلام: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٦-٣٩]، فعطاء الله واسع عظيم لا حد له.

فائدة: لهؤلاء المتلهفين على الدنيا، الخائفين من زوالها، الحزانى على نقصانها وفقدها، المتشككين في أمر الله تعالى بعدم تحصيلها، **الذين إن حصلوها فهم في شقاء لحفظها، وإن لم يحصلوها فهم في شقاء في محاولة تحصيلها**؛ هؤلاء الباكون عليها، الذين يتمنون بقلوبهم وسعيهم أن يكونوا على الحال الحسن الذي يظنون في هذه الحياة الدنيا؛ قال الله تعالى لهم: هذا عطاء الله، هذا عطاء الله ﷻ منه وحده، فسعيك لا يعني تحصيله، وجهدك وقوتك لا تعني جمعه، وإنما هو محض فضل الله تعالى، مُسبباً بأسبابه.

---

١ - الحديث رواه البخاري (٤٦١) ومسلم (٥٤١) كلاهما يرويه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ عِفْرِيتًا مِنْ الْجِنِّ جَعَلَ يَفْتِكُ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمْكَنَنِي مِنْهُ فَذَعَتُّهُ، فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى جَنْبِ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ؛ حَتَّى تُصْبِحُوا تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ، أَوْ كُلُّكُمْ، ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} فَرَدَّهُ اللَّهُ خَاسِئًا).

فإن كان قد شغلك حاضرك ومستقبلك، فخذ بأسباب عطاء الله تعالى، من الإيمان والتقوى، سيفتح عليك بركات من السماء والأرض، ليطمئن قلبك ويقوي فؤادك، فيأخذك إلى ربك، واثقاً في موعوده تعالى، عالماً أن ما كتب الله تعالى لك آت لا ريب فيه، وأنه لا تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها وأجلها[1]، حينئذ تطمئن هذه النفس إلى ما هي فيه، وتعلم أن رزقها لن يتعداها، وأن رزقها لن يأخذه غيرها؛ فطابت وسكنت، وسارت إلى الله تعالى مطمئنة، وعلمت حينئذ أنَّ بصبرها واطمئنانها ويقينها فيما عند الله يأتيها رزقها، وعلمت أنه يمكن أن يفتح الله تعالى عليها فتحاً عظيماً كما قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

المنة العظمى: وهي المنة بالنبي ﷺ، ولتوضيح معنى هذه المنة نسأل: هل ورد في القرآن الكريم ما يدل على أن الله تعالى منَّ على نبيه الكريم ﷺ بشيء؟ والتطرق لهذا السؤال للمقارنة بين ما تكلم عليه القرآن الكريم في منة الله تعالى على النبي ﷺ، وما

١ - أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/١٨٥ ، رقم ١١٥١) والبزار (٢/ ٨٢) ، والبيهقي في الآداب (٤٦٠) ، وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٤/٧٧): (رواه بن أبي الدنيا في القناعة ، والحاكم من حديث ابن مسعود وذكره شاهدا لحديث أبي حميد وجابر وصححهما على شرط الشيخين ، وهما مختصران ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان وقال : إنه منقطع) وصححه الألباني في تخريج أحاديث مشكلة الفقر (١٥). ولفظه: (إن روح القدس نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله؛ فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته).

تكلم عليه القرآن الكريم في منة الله على بقية الأنبياء عليهم السلام، كما بينا في الآيات السابقة.

آية النبي ﷺ في المنة، هي قوله تعالى في سورة المدثر: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦] وهي من السور الأولى في القرآن، فلم يأت قولٌ من الله ﷻ يقول للنبي ﷺ ولقد مننا عليك في كذا وكذا!

ولكن قال: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ ومعناها: ألا يستكثر ما يعطيه وينفقه ويمن به من منن ونعم وأفضال؛ حتى لا يكون ذلك سببًا في قلة عطائه. فلا تستكثر المنن التي تعطيها، ولا المواهب التي تسديها، ولا ما تقدم من جليل الأعمال وجميل الإنفاق والصفات؛ حتى يكون استكثارك منه منعًا لازديادك فيه؛ **فلا تقف عند حد من الاستكثار**.

فكانت هذه الآية من الآيات الكريمة التي تحمل معنى المبالغة في الثناء على النبي ﷺ على عكس ما ذكر في كلام على غيره ﷺ من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، الذين يذكرهم الله تعالى بما منَّ به عليهم. وذلك ليس تقليلًا من شأن غيره من الأنبياء- حاشا لله أن نقول ذلك- ولكن تبيينًا لعلو درجته وعظيم منزلته ﷺ عند ربه جل وعلا.

والمعنى الذي نريد الوصول إليه، هو أن الله تعالى لما أمر الرسول ﷺ بكثرة العطاء، فإن من أسباب ذلك أن يكون ﷺ **هو أول المتخلقين والمتشبهين والمتصفين بصفات الله المنان؛**

لأنه لا يمكن لأحد في الدنيا ولا الآخرة أن يكون أعلى من النبي ﷺ في صفة من صفاته. فهو ﷺ أعلى الخلق في الاتصاف بمعاني المنان، ولما كان في علو هذه الصفة قال له المولى: إن ازديادك من هذا المن لا يجعلك تنظر إليه باستكثار يمنعك من مواصلة هذه الزيادة أبدًا.

فائدة: الخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ متوجه للمؤمنين المتقين، فالنبي ﷺ ليس من خُلقه المن على أحد، وإنما جاء هذا التوجيه ليكون زادًا للمؤمنين في توجيههم على مقتضى الرسالة، وليكونوا على خُلُق الرسول ﷺ، فلا يمن أحد بعمله للخير بحيث يكون هذا المن سببًا في عدم استكثاره من هذا الخير، ولكن افعل الخير الكثير، وبعد ذلك لا تظن أن الخير الذي عملته كثيرًا فتمن به، وذلك من بداية دعوة النبي ﷺ فتأمل هذا الأمر.

ومثلها قوله تعالى: ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] **و فيها أمر للمؤمنين ألا يعددوا النعم تفاخرًا على مَن يعطون، وألا يعطوا النعم ثم ينتظروا ثواباً من أحد عليها، ولكن كما قال: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾** [الإنسان: ٩].

المنة على المؤمنين

بعد الإشارة إلى منة الله تعالى على الأنبياء والرسل، فإن الدرجة التالية من هؤلاء الذين منَّ الله تعالى عليهم من عباده هي درجة **المؤمنين**. فالله تعالى منَّ على المؤمنين بالإيمان في قوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات: ١٧]، ومنَّ عليهم بالطريق الموصل لهذا الإيمان وهو النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ومنَّ عليهم بالقرآن، كما بينت نفس الآية: ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ومنَّ عليهم كذلك بما أعطاهم في الدنيا، ومنَّ عليهم بمنة الآخرة في النجاة والفضل، وبمنن أخَر سنشير إليها في الآيات التي تبين منن الله تعالى على خلقه.

والمتفكر في هذه الآية الكريمة: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] يستفيد منها في أشياء كثيرة:

أولها: الله تبارك وتعالى أنقذك أيها المسكين بهذا الرسول من الكفر والشرك والإلحاد، وهذا سبب النجاة في الدنيا والآخرة، فانظر كيف سبقت لك عناية الله ﷻ ورعايته وحفظه لك بأن أدخلك في هؤلاء الذين من الله عليهم بهذا الرسول ﷺ.

ثانيها: المعنى المتوجه لك في الآية، لقد منَّ الله تعالى عليكم بشيء عظيم، منَّ عليكم بإخراجكم من الظلمات إلى النور، منَّ عليكم بهداية الدنيا والآخرة، منَّ عليكم بأسباب السعادة، منَّ عليكم بمعرفة طريقه ﷺ.

ويستكمل قوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات : ١٧] منة الله تعالى على المؤمنين، بأن وضع الإيمان في قلوبهم حتى آمنوا بهذا الرسول وأحبوه وأطاعوه وهاجروا معه وقاتلوا تحت لوائه، وبذلوا النفس وتركوا الأهل والمال والوطن والولد هجرة إلى النبي ﷺ ، فالله ﷻ له المنة، وله الفضل، وله الثناء الحسن في أن وضع في قلوبهم هذا الإيمان الذي جعلهم يضحون هذه التضحيات في سبيله؛ وهذه تستوجب شكر الله تعالى أن هداهم للإيمان، وترك غيرهم، وللوقوف بين يديه ومنع غيرهم، وأقبل بقلوبهم عليه وحرم قلوب غيرهم، ووفقهم للطاعة وترك غيرهم في المعصية.

لذلك يقول تعالى تأكيدًا لهذه المنة: ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : ٩٤] أي كذلك كنتم مثل هؤلاء الكفرة مشركين فمن الله عليكم وهداكم للإيمان.

وهذه المنة مما ينبغي أن يتفكر فيه المؤمن؛ ليعبد الله تعالى ويوحده ويدعوه باسمه المنان، وليأخذ حظه منه؛ فإن كان الله تعالى يمن عليك بالإيمان ﷺ ترى لم تكون مقصرًا في هذا الإيمان؟ ألم يمن عليك بالإيمان ﷺ وأنت لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان؟ ويأتي السؤال: ألا يستطيع أن يهبك إيمانا أعلى، وقربا أعلى، وتعلقا أعلى، وطمأنينة وسكينة

وإخباتًا وإنابة ومحبة وخشوعًا وخضوعًا وخوفًا ورجاءً وإقبالاً وتوكلاً؟ يمكن؟ ما الذي يمنع هذا؟ هو ﷻ المنان إن سرت إليه شبرًا سار إليك ذراعًا، وإن قمت إليه مشى إليك ﷻ [1]، هو سبحانه قد تفضل عليك بغير سبب؛ فإذا ما قدمت السبب ألا يتفضل عليك؟!

قبل أن تُخْلق، هل قدمت شيئًا لله؛ فخلقك مؤمنًا بسببه؟ لم يكن ذلك ولن يكون، وإنما **هو منَّ عليك بالإيمان، فهل يمكن أن يزيدك منه أم لا** ؟ إذن من المقصر في أن يحصل هذه الدرجات ويبقى فيما هو فيه من التأخر والتقهقر، وضعف الإيمان وعدم استشعار حلاوة الإيمان والقرب من الله؟!

فمن فتح الله تعالى له أبوابه بالمن والعطاء، والأبعدُ أغلقها في وجهه بالإدبار عنها، والتقصير فيها، والتكاسل، والتواني، وطول الأمل، وتسويف التوبة، ونسيان الآخرة، والغفلة عن لقاء الله تعالى! كيف يستجلب إذن تلك المنن التي أضاعها على نفسه؟! يستجلبها بشكر الله تعالى؛ وبقدر تحصيله من شكر هذه النعم التي منَّ الله عليه بها، بقدر ما يأخذ من منة الله تعالى عليه فيها.

---

١ - رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً).

القسم الثاني: أنواع منن الله على خلقه

ونذكر المنن والآيات التي تدل عليها بإيجاز إن شاء الله تعالى.

المنة بالإسلام

وهي أول المنن التي منَّ الله ﷻ بها على المؤمنين؛ وهي أعظم المنن، يقول المولى ﷻ: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقوله: ﴿ لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ ﴾ نهيٌ من الله تعالى ينبغي للمؤمن المسارعة إلى تنفيذه، وفيه معانٍ كثيرة، أولها: أن المن بالإسلام شيء غير مطلوب؛ فلا ينبغي لك أن تمن بإسلامك؛ والمنة بإسلامك كقولك: أنا أسلمت يكفيكم هذا! أو أن تمن بأعمال الدين، وقضايا الإسلام، وموضوعات الإيمان، كقولك: **الحمد لله أنا أصلي وأصوم وأقوم الليل وأقول أذكار الصباح والمساء، وكذا وكذا.**

وهذا يوقع صاحبه في مصيبة كبيرة! هي أنه حينئذ يمن على الله تعالى بعقله وعلمه، وقدرته وقوته، ظاناً أنه هو الذي فعل، وذهب، وقام، وصلى وذكر وجاهد، ودعى، وكذا وكذا؛ **حتى ولو لم يصرح بذلك؛ فإن قلبه يميل إلى إظهار رؤية هذه الأعمال**، وأنه الفاعل لها!

كان يمكن أن يكون كغيره غافلاً ضالاً، فمن الذي وهبه القيام والصيام والذكر؟ ومن الذي وفقه لذلك وأعانه؟ لذا ينبغي أن يكون لسان حال كل منا: **الله تعالى هو الذي وفَّق، ووهب، وأعان، ثم هو ﷻ الذي يقبلها بفضله وكرمه ومنِّه.**

لذلك فقوله: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾ يُفْهِم أنه لا يوجد شيء اسمه المن في الإسلام، ليتعلم المؤمن منه أن المن بعمله أمر قد استنكرته الآية واستهجنته، لأن الله تعالى هو الواهب أولاً، وهو المعين ثانيًا، وهو المتفضل بالقبول ثالثًا، ولا حظَّ لك في هذه أو تلك أو ذاك، ولكن كما قال ﷻ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

وقوله: ﴿ لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ﴾ هل هو نَهْيٌ عن المن بالإسلام فقط؟ أي: لا تمن على الله تعالى بإسلامك فقط ومُنّ بما شئت؟! لا؛ إنه نهي عن المنِّ بأي شيء؛ لماذا؟ لأنه عندما نهاك عن المنِّ بإسلامك الذي هو أعلى ما أعطاك، وأعظم ما وهبك إذ استنقذك به من النار في الآخرة، وعرَّفك به طريق الله في الدنيا، وعصمك به من أن تعبد غيره، وتسجد لسواه، فلا يجوز أبدًا أن تمن بشيء أقل من هذه المنة جزماً ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾ فالمنة لله ﷻ ولرسوله ﷺ.

ثم المطلوب عندما سماع: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾ **مقابلة هذه المنة بشكرها**، ودعاء الله تعالى بالثبات عليها، والازدياد منها؛ فعندما يخاطبك ربك: أنا أمن عليك أني هديتك للإيمان، فلسان حالك: بلى! المنة لله ولرسوله، سأفعل ما في وسعي،

وأقوم بجهدي حتى أشكر هذه النعمة، وحتى أكون أهلا لرحمة الله تعالى بها، وأن يثبتني عليها، وأن يزيدني منها.

المنة بالنبي ﷺ

وهي المنة الثانية التي منَّ الله بها على عباده، فمنَّ عليهم بالنبي ﷺ، الذي هو طريق وصول منة الإسلام إلينا، يقول الله تعالى: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ** ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

المتفحص المتأمل لكلام الله تعالى يجد هذه الآية مليئة بالمعاني الجميلة، انظر إلى هذه المعاني في قوله ﴿ **لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً** ﴾ كيف تكون مقابلتك لهذه المنة، لهذا الرسول؟ بالشكر؛ كيف يكون شكر هذه النعمة؟ **أول** ما تقابل به هذه النعمة هو **التعظيم والتوقير والاحترام لهذا الرسول الذي أرسله الله إليك** كما ذكر الله ﷻ في حقوق النبي ﷺ: ﴿ **لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ** ﴾ [الفتح: ٩]. **والثاني: اتباع هذا الرسول، واتباع سنته والقيام بها، ومحبته والجهاد من دونه ونصرته، والتزام هديه، ونشر دعوته ﷺ والمعرفة بحقوقه، والقيام بها.**

إذن فالمقصر في حقوق النبي ﷺ مقصر في أداء شكر هذه النعمة لله تعالى، المقصر في اتباع السنة، وفي دعوته إليها، المقصر في أداء حقوق النبي ﷺ في نصرته وإعلاء دينه،

والدعوة إليه، المقصر في التزام هديه ﷺ في عباداته ومعاملاته إلى آخر ذلك، كل من قصر في شيء من ذلك فقد قصر في شكر هذه النعمة العظيمة التي أنعم الله تعالى علينا بها.

المنة بالقرآن

وقد بينتها نفس الآية، وبينت شكرها فقالت: ﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ وبعد ذلك: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ ثم: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ وهذا المعنى ذكره الله تعالى في هذه الآية بالذات حتى يكون سبيلاً من سبل شكر نعمة الله تعالى بإرسال هذا النبي ﷺ، **فطريق التزكية هو الكتاب والحكمة**، وقدم التزكيةهنا لأنها المطلوبة، **فمن لم يتزك بالقرآن والسنة لم يؤد شكر هذه النعمة، ولم يعرف أن الهدف والمقصود الأول من إرسال الرسول هو تزكية النفس**، وتطهير القلب، وتطهير البدن حتى يكون أهلاً لمجاورة الله تعالى في جنته كما قال: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣] ، وكما قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢] فلا يدخلون الجنة إلا أن يكونوا طيبين في أقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم، وظاهرهم وباطنهم.

المنة بالتمكين في الأرض

وهي في قول المولى ﷻ: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٥-٦]، فمنن المولى ﷻ لم تنقطع عن المؤمنين من غير أمة النبي ﷺ وإن كان الله تعالى قد اختص بهذه المنن بعض المؤمنين في الأمم السالفة؛ فإن هذه الآيات كذلك لا تمتنع على أمة النبي ﷺ، وإنما هي من نِعَمِ الله على هذه الأمة من باب الأولى، لذلك ينبغي أن يهيئ المؤمنون أنفسهم ليحصلوها. وفي هذه الآية أربع منن كما يقول العلماء: ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٥-٦].

وقد جاء قوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ ﴾ بصيغة المضارع وليس الماضي، وذلك بالرغم من أنه سبحانه قد أراد وانتهت الإرادة، ولكن استعمال المضارع لإظهار الحال الحاضر، فكأنه يمن عليهم في تلك الحال ﷻ،وحتى يلاحظها هؤلاء المتوجه إليهم الخطاب؛ وكذلك حتى يثبت قلوبهم، ويبين لهم الحالة كأنها مشاهدة لهم، فكأنك تشاهد منن الله تعالى وهي تُظهر لك كيف يُمَكِّن لهم، وكيف يُخرِج هؤلاء المستضعفين، وكيف يجعلهم أئمة، وكيف يجعلهم يرثون الأرض، وكيف ينصرهم، ويقتل عدوهم .

وسوف نتعرض للشرح التفصيلي لهذه الآية، ولكن نشير إلى معنى مهم وهو: ترى هؤلاء المستضعفين يجعلهم الله تعالى أئمة ويجعلهم الوارثين، ويمكِّن لهم وينصرهم، ويهلك عدوهم؛ لأنهم فقط مستضعفون في الأرض؟ أم لأنهم وصلوا إلى حالة الاستضعاف مع الإيمان الذي يكون سببًا لأن يقويهم الله تعالى، وأن ينصرهم؟ هؤلاء المستضعفون في الأرض، لو كانوا عصاة مذنبين، وعليهم غبرة المخالفة لله تعالى، هل الله تعالى يُمَكِّن لهم ويجعلهم أئمة؟!

الله تعالى يُمَكِّن لهؤلاء المستضعفين لأنهم قد وصلوا إلى حالة من الافتقار إلى الله والدعوة إليه، وبذل الجهد والوسع، حتى لم يبق لهم شيء؛ حينئذ تنزل عليهم رحمة الله تعالى، ونصره وتمكينه؛ لأنهم صاروا أهلاً لأن يكونوا أئمة، وأن يكونوا الوارثين المُمَكَّنِ لهم في أرض الله؛ فالله تعالى ينصر المستضعفين بما هم عليه من الطاعة، والتقرب إليه، وبما هم فيه من بذل الجهد والوسع ليرفعوا راية دين الله تعالى، فهم يبذلون ويتحملون في سبيل ما يمكن أن يكون سبباً لجعلهم الأئمة الوارثين.

وقد ورثوا الأرض، كما قال موسى لقومه: ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨]، وذلك بعد أن وصلوا إلى حالة التقوى والاستعانة بالله والصبر، إلى درجة الإمامة والتمكين والنصر، ووراثة الأرض فهزم الله عدوهم كما ذكرت الآيات.

وهناك معنى مهمٌ أيضاً في الآية، هو أن **المولى ﷻ يُصبِّر المستضعفين من المؤمنين في الأرض في كل زمان**، كما كان حال المؤمنين في مكة المكرمة أيام بعثة النبي ﷺ، من الذل والاستضعاف، فإذا بالله يمن عليهم ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، ويمكّن لهم في الأرض، فانتصروا على كسرى وقيصر، وملكوا الأخضر واليابس في أيامهم، ووصلت جنود الإسلام إلى كل مكان يمكن أن الوصول إليه.

وهذه الآية عامة للمؤمنين في كل زمان وفي كل مكان، وبشارة لهم إلى أنهم إن تحققوا بهذه الأسباب من أسباب منة الله عليهم فإن الله ﷻ يحققها لهم، وإن الله ﷻ يكرمهم بها، وإن الله ﷻ يمن عليهم أعظم المنة بهذا السبيل؛ ليكونوا كما ذكر: ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

لذلك كان المؤمنون اليوم مطالبين بتحقيق هذه المعاني، لقد وصلوا إلى الذلة والقلة والمهانة والحقارة في دنيا الناس؛ حتى تخطفهم الكبير والصغير والعزيز والحقير، واستُبيحت أرضهم وأعراضهم، وانتُهكت، وأُخذت ثرواتهم ونهبت أموالهم، كل ذلك لبعدهم في حال استضعافهم عن الإيمان، وتحمل المشقة، والقيام بحق الدين ونصرة الإسلام وعن تلك الحال التي ينصر الله تعالى بها المستضعفين، ولْيعلموا أن الاستضعاف الذي هم فيه له آخر، وأن الله تعالى هو الذي ينصر عباده، فإن نصروه نصرهم، وثبت أقدامهم، ورفع رايتهم، وهزم أعداءهم وأذلهم، وليس النصر حينئذ

موكولاً إليهم، إنما هو موكول إلى الله تعالى؛ لأنه بحسابات المادة التي هم فيها لا يمكن أن ينتصروا، إذ النصر حينئذ بحسابات الإيمان.

المن بالنجاة عند إهلاك المتكبرين والكفرة

وهو في قوله: ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ [القصص : ٨٢] في قصة قارون، وهي من القضايا المهمة لأصحاب الدنيا الذين يريدون أن يكون لهم مثل ما لقارون، الذي كانت عاقبته: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٢-٨٣]، فعندما خسف الله بقارون وأهله وماله وداره الأرض نجى هؤلاء المؤمنين حتى قالوا: ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾.

وقد جاءت المسوغات التي ينجّي بها الله تعالى المؤمنين في الآيات في قوله: ﴿ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٠]، وأيضا قوله: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فكانت النجاة من العذاب والبقاء لليقين والعمل الصالح والتقوى وتقديم ثواب الله تعالى على مناظر الدنيا الزائلة، في حسن التوكل على الله تبارك وتعالى، والثقة

في ما عند الله تعالى، وأن ما عند الله خير وأبقى، كما قال: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص : ٦٠] .

فهذه تبين للمتعبد لله تعالى باسمه المنان كيف يحصل هذه الصفات؛ حتى يحوز هذه المعاني التي رتب الله تعالى عليها النجاة لأهل الإيمان في الدنيا والآخرة، ورتب عليها ﷻ ذلك الثواب، وأن ذلك كله لا يلقاه إلا الصابرون، لأن الصبر هو ملاك تحقيق هذا الثواب الجزيل من الله تبارك وتعالى لأهل الإيمان، الذين يصبرون على أمر الله تبارك وتعالى، ولا يتزحزحون عن بابه، ولا تميل أعينهم وقلوبهم إلى زهرة الدنيا وزينتها، **الذين لا يريدون العلو ولا الأبهة ولا الجاه ولا السلطان ولا الرفعة ولا غير ذلك**، لأن العاقبة ليست للمال ولا للجاه ولا للسلطان ولا لقارون، وإنما الحظ العظيم هو تقوى الله ﷻ التي إن حصلها حصل كل هذه المعاني الصالحات من الله تعالى، وأنك إن تمنيت ما عند الله حصلت هذه الدنيا وحصلت الآخرة: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٤].

المنة بوقاية العذاب في الآخرة

وإذا كانت هذه منن الله تعالى على المؤمنين في الدنيا فإن الله ﷻ قد منَّ عليهم المن الأعظم في الآخرة، وانظر إلى هذه الآية الجميلة التي يذكرها المتقون عندما يذكرون نعمة الله عليهم في الجنان ونجاتهم من لفحات النيران؛ يقول: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ

بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٥-٢٧].

فهذه الدنيا طالت أو قصرت، فإنها زائلة ومنتهية، ويهمك أن تكون في الآخرة كريمًا على الله تعالى، تأتي آمنًا يوم القيامة، لا تخاف حين يخاف الناس، ولا تحزن حين يحزنون، وإنما تأتي وقد أظلك في ظله يوم لا ظل إلا ظله ﷻ؛ يكون سبب تعرضك لهذا المن: الإشفاق من الله تعالى والخوف منه في الدنيا، فهو الذي دفعك إلى العمل الصالح، ونهاك عن مخالفة الله تعالى، والوقوع في المعصية؛ ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ وهذا هو الخوف الممدوح، فالمؤمن الخائف من الله تعالى كلما سمع أمرًا من أوامره قام بالمسارعة إليه، وكلما سمع نهيًا انتهى عنه، فكان جزاؤهم في الآخرة: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾.

فكان من منة الله وجميل عطاياه ﷻ أن أعطاهم من أفضاله وإنعامه ﷻ ما يتنعمون به في الآخرة، وكذلك وقاهم عذاب نار جهنم.

وفي الآية معنى مهم ، وهو ما سبب تلك المنة وتلك الوقاية من عذاب الله تعالى؟ أجابت الآية على لسانهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهل كانوا مشفقين فقط؟ لا! بل كانوا مشفقين مع الدعاء لله تعالى أن يوفقهم للعمل الصالح، وأن يعينهم عليه، وأن يتقبله منهم، وأن يميتهم على الإيمان، وأن يبعثهم ﷻ آمنين يوم الفزع الأكبر.

أو يكون معنى ﴿ نَدْعُوه ﴾ أي: كنا نعبده تلك العبادة التي أوصلتنا إلى ما نحن فيه من النعيم، وهي المذكورة في قول[1] النبي ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»، ثم قرأ: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾.

القسم الثالث: جزاء المنان ﷻ لعباده

وفي نهاية المطاف جاءت في القرآن ثلاث آيات تبين جزاء المنان ﷻ لعباده؛ وانظر في هذه الآيات، وتدبر معانيها، لتستفيد من هذه الفوائد التي أودعها الله تعالى كلامه؛ حتى تكون هي البلسم الشافي، وتكون هي الهادي للعبد المؤمن إلى طريق الله تعالى.

الآية الأولى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾ [فصلت : ٨] **والثانية:** ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾ [الانشقاق : ٢٥] **والثالثة:** ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾ [التين : ٦] وقد وصف الجزاء في كل هذه الآيات بأنه غير ممنون؛ لأنه لما وصل هؤلاء المؤمنون إلى هذه الحال من تقبل منن الله تعالى، بشكرها والقيام بحقها؛ **إذا بالله تعالى يكافئهم بأجر غير ممنون ﷻ**، وهو الأجر الذي لا منة فيه، أو على القول الثاني: أجر غير منقوص يشاركون

---

١ - رواه أبو داود (١٢٦٤)، والترمذي (٢٨٩٥) وقال: حديث حسن صحيح، وقد رواه منصور والأعمش عن ذر ولا نعرفه إلا من حديث ذر؛ هو ذر بن عبد الله الهمداني ثقة والد عمر بن ذر اهـ؛ ورواه ابن ماجه(٣٨١٨)، كلهم يروونه عن النعمان بن بشير ﷺ، وقال الحافظ في الفتح: أخرجه الأربعة وصححه الترمذي والحاكم.

فيه النبي ﷺ ؛ لأنه ﷻ قال له ﷺ: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ [القلم : ٣] فكان جزاؤهم من جزاء النبي ﷺ؛ حيث كان اتباعهم له ﷺ وقيامهم بالكتاب والسنة، والتزامهم الهدي، وسيرهم على نهج النبي المعظم ﷺ سببًا في أن شاركوه هذا الأجر، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

الفصل الثالث:

الشرح التفصيلي لبعض آي المنَّة

نتخير في هذا الفصل بعض الآي، نشرحها شرحاً تفصيلياً، لنتبين الغرض الذي بسببه جاءت هذه الآي في مواضعها؛ فنشعر بجمال القرآن وبلاغته، وإن كان غرضنا الأصلي -كما ذكرنا- ليس التفسير، وإنما هو الإشارة إلى هذه الكلمات الوضاءة من كلام الله تعالى، وكيفية تصوير القرآن الكريم هذه المعاني المتعلقة بأسماء الله الحسنى؛ ليستفيد منها المؤمن، وليتعلم ماذا قال الرب ﷻ عن أسمائه، وكيف فسرها ﷻ ووضحها، وبيَّن توحيده ودعاءه بها، ثم حظوظ المؤمن منها، وما يترتب عليه مما بين القرآن من إصلاح للعبد؛ فالقرآن إنما نزل لهداية البشر إلى الله تعالى؛ لذلك لم يترك شيئًا يقربهم إليه ﷻ إلا وضمه في هذا الوحي المبين ليكون ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.



الآية الأولى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾

- عظيم قدر النبي ﷺ عند الله تعالى
- علاقة الآية بالسياق القرآني الواردة فيه
- مظاهر المنة بالنبي ﷺ في الآية
- مظاهر المنة بالقرآن والتزكية والتعليم
- حظ المؤمن من المنن الواردة في الآية



أولًا: عظيم قدر النبي ﷺ عند الله تعالى

من أعظم منن الله على عباده إرسال الرسل مبشرين ومنذرين، ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور. وقد كانت المنة برسول الله ﷺ أعظم المنن، وقد تجلى ذلك في الآيات العديدة التي بينت علو درجته وارتفاع منزلته ﷺ، وعظيم قدره عند الله تعالى، فقد شرح الله تعالى له صدره ، ووضع عنه وزره ، ورفع له ذكره ، وأعطاه الخلق الحسن الجميل، وهو ﷻ يصلي عليه ﷺ وملائكته، وآتاه من لدنه فضلاً عظيماً، وعلمه ما لم يكن يعلم، ورفعه إلى سدرة المنتهى، حيث رأى من آيات ربه الكبرى، منزلة لم يصل إليها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، إلى آخر ما ذكرت الآيات، مما يدل على محبته ﷺ ورعايته له وعنايته به، فهو ﷺ أعظم الخلق درجة عند الله تعالى، إذ هو ﷺ سيد ولد آدم ولا فخر.

وقد منَّ المولى ﷻ بهذه المنة العظيمة على عباده، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ثانيًا: علاقة الآية بالسياق القرآني الواردة فيه

جاءت هذه الآية الكريمة في ثنايا الكلام على غزوة أحد، والآيات السابقة عليها كانت لتسلية المؤمنين ومواساتهم بعدما وقع لهم في هذه الغزوة من انكسار، وكذلك الآيات بعدها، فقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

وهذه المواساة من كرم الله ﷻ للمؤمنين، وإحسانه إليهم، وعنايته بهم، ليثبت إيمانهم، وليقويهم مرة أخرى على السير في طريقه، وليُرِيَ المؤمنين كيف أن الله تعالى لا يترك عباده، فقد وقع الذي وقع في أُحُد بعلم الله وإرادته، فهو ﷻ لا يقع شيء إلا بأمره، وتحت سمعه وبصره، ولا ما يقع إلا ما يريد في كونه، وأن الحِكَم من وراء ما وقع لهم في أحد كانت أكبر مما لو لم تقع، وأنه سبحانه وتعالى - لا شك - يريد بهم الخير، ومن إرادة الخير بهم فعل ذلك لهم؛ لصلاح أنفسهم، وليعلموا منها ما يكون سببًا لمسارعتهم لتصحيح السير إلى الله ﷻ ليحصلوا رضاه، وليتخذ منهم شهداء، ومعانٍ أخر كثيرة جاءت في الآيات كما قال: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤١-١٤٢].

والسؤال المهم: ما العلاقة بين الآية التي تُذكر المؤمنين بمنة الله عليهم بإرسال النبي ﷺ وبين الكلام على غزوة أحد ومواساة المؤمنين؟

سياق ترابط الآيات، كما يظهر، **أن المحزون يصبر ويتعزى عندما تتذكره بما هو فيه من النعم**، ومن أعظم النعم التي أعطاها الله سبحانه وتعالى للمؤمنين إرسال هذا الرسول ﷺ، فكان التذكير بنعمة النبي ﷺ **تبييناً لهم أن كل ذلك الذي حدث لهم من قتل وجراحات لا يوازي أن الله ﷻ استنقذهم من النار بإرسال النبي ﷺ إليهم** ليكون سبب سعادتهم في الدنيا والآخرة.

يقول ابن عاشور[1]: "هذا استئناف لتذكير رجال يوم أحد وغيرهم من المؤمنين بنعمة الله تعالى عليهم، ومناسبة ذكره هنا، أن فيه من التسلية على مصيبة الهزيمة حظًّا عظيمًا، فإن في هذا التذكير من التسلية على مصيبة أحد حظاً عظيماً، إذ قد شاع أن تعزية المحزون وتصبيره بتذكير ما هو فيه من النعم، وله مزيد ارتباط بقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] "

ففي هذا التذكير حظ عظيم من التسلية على مصيبة ما حدث لهم من كسر يوم أحد عندما يعلمون ذلك الفضل العظيم من الله يستصغرون ما حدث لهم في أحد، ويهون عليهم ما حدث لهم أن ماتوا على الإيمان شهداء، وأن من بقي منهم بقي مؤمنًا يصاحب النبي ﷺ ويجاهد معه، ويرفع رايته، ويبذل نفسه دونه، منتظراً بذلك إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

---

١ - التحرير والتنوير، تفسير الجزء الرابع- سورة آل عمران صفحة: ١٥٧،١٥٨ .

ومثل ذلك التذكير يحدث إذا كان لأحد أولاد، ومات أحدهم، يقال له: قد أعطيت غيره. كما قال عروة بن الزبير - لما قطعوا رجله، وقتل ولده، وعنده أربعة أولاد -: إن قتل واحد فقد أعطيت ثلاثة غيره ، وإن قطعوا رجلا واحدة فقد بقيت الأخرى، ويكفيه قبل ذلك أنه يذكر الله تعالى ويوحده.

ففي التذكير أنه ﷺ رحمة بهم تسلية لهم بهذه النعمة، خلال تلك الأحزان؛ إذ قد وقع عليه ﷺ كما وقع على غيره وأكثر.

ثالثًا: مظاهر المنة بالنبي ﷺ في الآية

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. فالمن هو إسداء المنة ، وليس هو تعداد النعم على المنعم عليه، وذلك مثل الذي جاء في قوله: ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، والكل محمود من الله تعالى، أن يعدّد نعمه على عباده؛ لأن هذه النعم ليست مجحودة، وإنما يعددها لهم ليحملهم على التوحيد والشكر فلا يروا لغيره فضلاً على الحقيقة، فيكون ﷻ مقصودهم في طلباتهم ودعائهم، وإن كان يشكر الناس على أفضالهم وإلا لم يشكر الله تعالى.

ثم تقول الآية: ﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ وهذه تبين مظاهر النعمة التي أسداها الله لهم. فقوله: ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي: من أمتهم العربية، وذلك يفيد: **المُمَاثلة لهم في الأشياء التي تكون سببًا لقوة التواصل** وهي: النسب واللغة والوطن. فالعرب تقول: فلان من بني فلان من أنفسهم أي: من صميمهم وليس منتسبًا إليهم بولاء أو لصق،

وكأن هذا وجه إطلاق النفس عليه؛ فكأنه يقول: كونه من أهل نسبهم، أي: كونه ﷺ عربيًّا هذه نعمة، لماذا؟ لأن هذا **يوجب أنسهم به** ﷺ غير لو كان أعجميًّا، **وعدم الاستيحاش منه** لكونه غريبًا عليهم، أو لأنهم لا يعرفونه، لجهلهم نسبه أو لغته أو وطنه. **وكونه يتكلم بلسانهم** أيضًا من المنة فهذا يجعلهم **أسرع لفهم ما يجيء به. وكذلك منهم** أي: **خرج منهم لا من غيرهم**، فيكونوا قد خبروا أمره، وعلموا فضله، وشاهدوا استقامته ومعجزاته. وهذه المنة خاصة بالعرب ومزية لهم، وهي زيادة على المنة ببعثة النبي ﷺ إلى جميع البشر.

وهذه المنة مرتبطة أيضاً بقوله تعالى ﴿ مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾، فالعرب كانوا أول من تلقى هذه الدعوة، وتهيأ بها ثم كانوا أول من حملها إلى الناس؛ فكانت حكمة الله تعالى ظهور هذا الدين بينهم؛ ليتلقوه التلقي الكامل المناسب لصفاء أذهانهم وسرعة فهمهم لدقائق اللغة، ثم ليكونوا هم حملة هذا الدين وتلك الهداية، وذلك النور المتمثل في الإيمان بالله والنبي واليوم الآخر إلى البشر[1].

فائدة: منة الله باصطفاء عباده لدعوة خلقه وإرشادهم: وهذه منة عظيمة: أن يكونوا سبب هداية البشر، وأن يكونوا أعوانًا على عموم الدعوة ، وأن يكون النبي سبب هدايتهم ﷺ فعندما يذكرون هذه المنة يكون ذلك سببًا لأن يشكروا هذه المنة، وأن تثبت قلوبهم، وأن يبتعد عنهم الحزن والكدر والألم الذي أصابهم.

---

١ - المصدر السابق بتصرف.

وفي هذا الأمر أيضًا مِنَّة أخرى وهي: أن من تخلق بأخلاق العرب وأتقن لسانهم والتبس بعوائدهم وأذواقهم له هذه المزية التي امتاز بها هؤلاء العرب على غيرهم؛ وذلك لأنه صار أقرب لفهم الرسالة وصار أقرب إلى العرب؛ فكان في هذه المنة بركة أهل الإيمان من المؤمنين العرب، وكان فيها كذلك تلك البركة التي حلت على غيرهم بسبب هذه الدعوة التي نشروها، وبسبب لواء الإيمان الذي حملوا مشعله إلى الناس كافة.

رابعًا: مظاهر المنة بالقرآن والتزكية والتعليم

قوله تعالى: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ فيه مِنَّة جديدة، **تلاوة آيات الله تعالى عليهم.** وذلك لأن الناس في هذه الدنيا لا معرفة لهم بالله تعالى، إلا من آياته، وآياته سبحانه وتعالى آيات متلوة، وآيات مشاهدة. فآياته المشاهدة من الخلق والإبداع في الكون تدل على أن هذا الكون لا يصدر إلا عن إله واحد ﷻ، ولا يمكن إلا أن يكون عالماً حكيماً قوياً قادراً؛ وهذا النوع من الآيات يستدعي التفكر والتدبر كما قال ﷻ: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١] وذلك لا يهتم به كثير من البشر، فمن ذا الذي جلس ليتفكر في خلق الله تعالى؛ حتى يهديه هذا التفكير إلى معرفة الرب وإلى محبته والإقبال عليه؟! إنما هو لأولي الألباب خاصة.

فكانت منة الله تعالى العظمى في قوله: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ أن هذه الآيات المتلوة، هي الشاهد الوحيد الذي له علاقة بالله إذ هي كلامه ﷻ؛ وهو موحيها إلى النبي ﷺ، والتي فيها ومنها هداية البشر جميعًا إلى معرفة الله ﷻ.

ومعنى قوله ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ أي: يقرأ عليهم القرآن، وسميت جمل القرآن آيات؛ لأن كل واحدة منها دليل على صدق الرسول ﷺ من حيث بلاغة اللفظ وكمال المعنى، فكان هؤلاء المؤمنون صالحين لفهم ما يُتلَى عليهم من آيات الله ﷻ من غير حاجة لترجمان.

وقوله:﴿ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ والتزكية هي التطهير. والذي ينظر في سياق هذه الآية وفي سياق كل آيات القرآن المشابهة يلاحظ أن السياق جاء بتقديم التلاوة والتزكية على التعلم، إلا آية واحدة في سورة البقرة على لسان إبراهيم عليه السلام، في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩] ، فلماذا جاءت كل الآيات هذا السياق بهذا الترتيب؟

إن السياق المتوقع أن يأتي ترتيب المسببات على أسبابها، فيقول: يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم؛ لأن التزكية تنبني على التلاوة والتعليم؛ ولكن الآية قالت يتلوا عليهم الآيات ويزكيهم! ثم يتعلمون الكتاب، لماذا قدمت الآية التزكية؟! **لأن المقصود من مجرد التلاوة التي يتلوها عليهم ﷺ هو تزكية النفس وتطهيرها.**

ولما كانت هذه الآية في سياق منة الله تعالى على المؤمنين قدمت التطهير والتزكية على العلم؛ ليبين أن المقصود من العلم هو التطهير والتزكية، فكانت المنة العظمى في تزكيتهم بهذا العلم، وتربيتهم به، وتطهيرهم بتلك التلاوة ؛ حتى صاروا طاهرين مطهرين طيبين، كما قال المولى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣] .

أما آية البقرة فجاءت على الترتيب المتوقع: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ ﴾ [البقرة: ١٢٩] لأن هذا دعاء إبراهيم؛ فيدعو فيه بالواقع الذي يرجوه من الله تعالى، فطلب من الله تعالى أن يرسل رسولاً يتلو عليهم آياته ويعلمهم ويزكيهم ، وهو ترتيب الواقع في الدعاء والطلب من الله تعالى لذلك دعا به إبراهيم بخروج النبي ﷺ.

وقوله: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ والمقصود من تعليم الكتاب أمرهم بحفظ ألفاظه؛ لتكون معانيه حاضرة عندهم، مع تبيين مقاصد القرآن الكريم التي هي مقاصد الشريعة التي ينبغي على كل أحد أن يتعلمها بقدر استطاعته، أو بقدر ما يتفرغ لها إن كان متفرغا للعلم الشرعي؛ فإنه يتعلم كل ذلك فرضًا على الكفاية، وغيرهم يتعلمون ما يستطيعون فيه.

أما تعليم الحكمة **فمعناه الأول:** تعليم السنة، وهو قول الإمام الشافعي -رحمه الله- وهذا رأيه في كلمة (الحكمة) عندما تأتي ملتصقة بالكتاب وهو مناسب لهذه الآيات، كما قال في سورة الأحزاب: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ ﴾

[الأحزاب: ٣٤] فما الحكمة التي ستذكر في بيوت زوجات النبي ﷺ غير السنة ؟وهل أنزل الله تعالى عليهم شيئا آخر غير الكتاب وسنة النبي ﷺ على سبيل الذكر والتذكر، وعلى سبيل القيام بها ؟

المعنى الثاني أن المراد بالحكمة ما اشتملت عليه الشريعة من تهذيب الأخلاق وتقنين الأحكام، وهو معنى أعم؛ لأن ذلك كله مانع للأنفس من سوء الحال واختلال النظام، وذلك من معنى الحكمة كما في قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقوله: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ والمراد بهذا الضلال، الشرك والجهل والتقاتل وأحكام الجاهلية التي كانوا فيها، لذلك **كان في إخراجهم من هذا الضلال تمام المنة**، ووصِفَ الضلال بالمبين؛ لشدته فكأن الضلال الذي كانوا فيه لا يلتبس بشائبة أو شبهة هدى، وبسبب شدته كان حاله مبينًا، كقوله: ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [النمل: ١٣] . لذلك كانت منة الله عليهم عظيمة بإرساله هذا الرسول ﷺ الذي أخرجهم من هذا الضلال على شدته.

ومنة الله تعالى بعود المؤمنين لدينهم في أي زمان بعد ما كانوا فيه من البعد عن طريقه تشملها هذه الآية الكريمة.

خامسًا: حظ المؤمن من المنن الواردة في الآية

بعدما علمنا المنن التي منَّ الله تعالى بها على المؤمنين - على قدر ما فتح الله تعالى به في معاني هذه الآية -، جاء دور تالي وسامع هذه الآي المباركة لأخذ نصيبه منها عالماً أنه المخاطب بها، فحيثما قُرِيءَ قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ** ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وعلمت أن الله تعالى منَّ عليك بهذا الرسول ﷺ، من العرب أنفسهم، وعلمت المنة بالتزكية، وبتعليم الكتاب والحكمة لإخراجك من الضلال، استوجب ذلك منك أشياءً:

منها: **شكر الله تعالى على هذا النبي الكريم ﷺ الذي أرسله إليك**، بتوقيره، وتعظيمه ومحبته وتقديره وتعزيره، وببذل النفس والمال دونه، ثم اتباع سنته، والتزام هديه، والقيام بتفاصيل ذلك ظاهرًا وباطنًا، ثم الدعوة إلى سنته، ونشر دينه، والمجاهدة تحت لوائه ﷺ، إلى آخر المعاني التي تدل على أنك قد شكرت هذه المنة.

ثم المنة التالية التي يجب شكرها: ﴿ **يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ** ﴾ **فهذه الآيات المتلوة فيها منة على المؤمنين**، وشكرها في تلاوة هذه الآيات بآداب تلاوتها، وفهمها، تعظيمها، وتدبرها، ومعرفة الإقبال على الله تعالى، ومعرفة العلم والعمل بهذه الآيات والنصيحة

لكتاب الله تعالى كما ذكر النبي ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[1].

والمرء يعلم من حاله أنه مقصر في معرفة مقاصد هذا القرآن، ومقصر في القيام بحسن التلاوة له، ومقصر في القيام به آناء الليل وآناء النهار كما أمر الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرۡجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، وقوله: ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، إلى آخر الآيات التي بينت أن النصيحة لكتاب الله تعالى في الأمر بتلاوته، والإقبال عليه وتدبر معانيه والتفكر فيها والقيام بحقها والدعوة لها، وكل هذه الأشياء التي لا ينبغي للمرء أن يقصر فيها ولكن لا بد أن يجاهد في سبيل القيام بها ونشرها ورفع رايتها؛ حتى يكون قد شكر شيئًا من هذه المنة التي منَّ الله بها عليه.

وكذلك التزكية: فالتزكية ينبغي أن تكون همك الذي لا ينقضي: **كيف نتزكى ونتطهر بكتاب الله؟** كيف تصلح أحوال نفسك؟ فالكثير يشكون من سوء أحوالهم، وكثرة تفريطهم وكسلهم، وازدياد البُعد والجفاء بينهم وبين الله تعالى، ما هو حل ذلك؟ الله تعالى وصف الحل، وبين كيفية التزكية والتطهير لمن أراد أن يطهر، أو أراد أن يذكر، أو أراد شكورًا . وأول ما يتزكى به المؤمن هو تلاوة آيات الله، مستفيداً منها العلم النافع والعمل الصالح.

---

١ - رواه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري ﷺ.

لذلك على من يشكو من سوء حاله أن يعلم أن بداية الإصلاح في كتاب الله: ابدأ بأخذ نورك ورحمتك وهدايتك من تلاوة كتاب الله تعالى، اشكر نعمته ﷻ في تلاوة الآيات، هذه التلاوة - كما ذكر تعالى - هي التجارة التي لا تبور، خذ من هذه التلاوة الهداية، كما قال: ﴿ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ ﴾ [فصلت: ٤٤]، وكما قال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ [الإسراء: ٨٢] فشفاؤك ورحمتك التي تنتظرها لهذه الأمراض والعلل، بدايتها في القيام بتلاوة كتاب الله حق تلاوته: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ ﴾ [البقرة: ١٢١].

لا تنم قبل أن تقوم بما تراه قد قدمته حقًّا لهذه المنة من التلاوة شكراً لها، فإذا بك قد استقام قلبك واستنار فإن القرآن هو النور والبركة، وهو الرحمة، والشفاء، إلى آخر هذه الأوصاف التي ذكر الله تعالى لكتابه الكريم ولكلامه المجيد ﷻ، فإن أخذت منها واستكثرت، استكثرت من الهداية، ومن النور والرحمة، ونزل ذلك كله على قلبك؛ فاستضاء هذا القلب، وذهبت منه آفاته وأخلاقه السيئة، وذهب منه ما يعاني من العلل، كالحقد والحسد وطول الأمل في الدنيا، والركون إليها والغفلة وحب المال والصور، وحب طول البقاء في هذه الدنيا الفانية إلى آخر هذه العلل الموجعة.

إن الكثير قد لا يحس بأمراضه وعلله، فإذا بالقرآن ينزل فيشفي هذه الأمراض، وتلك العلل، وإذا بك قد انتقلت إلى شخص آخر قد استضاء بالقرآن، ورُحِم به، ونزل

عليه الشفاء بسببه، وبورك له في جهده ووقته وصحته وعلمه وعمله بهذا القرآن كما قال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

إن قضية شكر منة القرآن من أهم القضايا التي ينبغي أن ينشغل بها المؤمن؛ فالقيام بحق هذا الكتاب بالتلاوة والعلم والعمل والفهم والتدبر؛ يحقق العود الصحيح إلى طريق الله تعالى؛ والشفاء من تلك العلل والأمراض والأوجاع التي نعانيها.

كيف يكون ذلك الشكر؟ لا تترك القرآن من يديك، اجعله همك: تلاوة وتدبرًا وإقبالاً وصلاة وذكرًا، اختم القرآن كل ثلاثة أيام كما ورد عن النبي ﷺ إذا بك قد أخذت حظًّا عظيمًا من محبة الله تعالى، ومن آياته المتلوة التي لا نعرف الرب ﷻ إلا بها هذه الأيام.

ولا تقول: غدًا إن شاء الله أبدأ، وغدًا أحاول، وغدًا إن شاء الله سأرتب برنامجًا وكذا وكذا من كلام الشيطان ووسوسته، ومن تسويفه وتأخيره؛ حتى يضعفك غدا كما أضعفك اليوم عن الرجوع والإقبال على الله، ولكن **ابدأ من هذه اللحظة في الوفاء بهذا الوعد وبذلك العهد مع الله تعالى**، ولا تخف ضياع الوقت: لأنه لن يضيع الوقت طالما كان في شغل الله، فذلك سبيل البركة في الوقت، وسبيل دفع وساوس الشيطان عنك، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج: ٣٨] فيدفع عنك وساوس الشيطان التي يبديها لك؛ حتى يؤخرك إلى الغد، ولكن خذ حظك الآن من هذه

الموعظة، فإنه إن رآك الله تعالى مهتمًا مشغولاً حزينًا؛ فإنه يتحنن بك، ويتعطف عليك، ويحفظك ﷺ كما قال: «**احفظ الله يحفظك**»[1].

---

١ - الحديث رواه الترمذي (٢٥١٦)، وقال: حديث حسن صحيح، ط دار الكتب العلمية، بيروت، وأحمد في مسنده (٢٦٦٤)، وقال ابن تيمية في التوسل والوسيلة (٥٢): معروف مشهور، وحسنه وابن حجر في موافقة الخبر الخبر (٣٢٧/١) ، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (١٨٨) : حسن وله شواهد ، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٤٥٩/١): حسن جيد. ولفظه (عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ).

الآية الثانية:

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ﴾

- منزلة إنفاق المال في سبيل الله تعالى
- شهود منة الله تعالى في الإنفاق
- انتظار ثواب العطاء يكون من الله تعالى
- المجاهدة وأثرها في حفظ العهد على ترك المن
- عاقبة ترك المن والأذى



أولًا: منزلة إنفاق المال في سبيل الله

إن قضية إنفاق المال من القضايا التي عالجها القرآن الكريم في أكثر من موضع، والسبب في ذلك أن إنفاق ما دون المال أسهل، فإذا أنفق أحد ماله سهل عليه أن ينفق ما هو دونه؛ لأن أعلى شيء يحصله الإنسان هو المال والولد؛ لذلك قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [المنافقون: ٩] فلما ذكر الأموال والأولاد، دل ذلك أنه ليس هناك فوق الأموال والأولاد شيء، فإذا لم يلهه المال والولد فما دونه من باب الأولى لا يلهه عن ذكر الله تعالى.

فهؤلاء الذين ينفقون الأموال، لا ريب ينفقون ما دونها من باب الأولى، فينفقون جهدهم وطاقتهم ووقتهم، وكل ما يستطيعون إنفاقه من علم وعقل وبذل وسعي وسلطان لمن كان له سلطان، يعين الناس به، أو يرفع عنهم، أو يخفف عنهم، أو يقف لهم، وهكذا.

وأول ما نشير إليه من الآيات الكريمات العظيمات التي تحض على النفقة قوله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

ونلاحظ أن أول ما بينته الآية في الإنفاق، **أن يكون في سبيل الله** ؛ لأن المنفق في غير سبيل الله إنفاقه غير مقبول، كما سنذكر بإذن الله تعالى.

ثانيًا: شهود منة الله تعالى في الإنفاق

ونبدأ في الكلام في هذه القضية من كتاب طريق الهجرتين[1] للإمام ابن القيم، لأنه وضح جوانب هذه الآيات سواء فيها ما يتعلق بالمعاني، أو ما يتعلق باللغة.

يقول الإمام ابن القيم: **فالمن نوعان، أحدهما: مَنٌّ بقلبه من غير أن يصرح به بلسانه**، وهذا إن لم يبطل الصدقة فهو من نقصان شهود منة الله عليه في إعطائه المال وحرمانه غيره، وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه؛ فلله المنة عليه من كل وجه، فكيف يشهد قلبه منة لغيره؟

والمقصود أن المن بالقلب هو ذلك الذي يجول في صدر المرء ويحدث نفسه به ولا يقوله بلسانه، ولكنه يرى في داخله فعلاً أنه قد أعطى فلانًا، ووهبه، ووقف إلى جواره، وفعل له كذا وكذا، وهي هذه مسألة خطرة: أن يثبت بقلبك هذا المن، لماذا؟ قال: **لأن الله تعالى المنة كلها عليك**، فكيف تشهد قلبك منة أخرى لغيره؟ فهذا المن بالقلب إذا لم يبطل الصدقة، فإنه **نقصان شهود منة الله عليك**. تراك أنت صاحب المال الذي أعطيت لهذا الرجل؟ تراك أنت بنفسك الأمارة بالسوء البخيلة الذي أنفقت؟ كل ذلك من نقصان شهود منة الله عليك. لقد أعطاك الله تعالى المال ومنع غيرك، ثم أنت تمن بقلبك على غيرك وتشهد المنة لنفسك ولا تشهد منة الله عليك؟!

[1] - ابن القيم طريق الهجرتين ودار السعادتين - طبعة مجمع الفقه الإسلامي- دار عالم الفوائد- صفحة ٧٩٤-٧٩٨.

وهذا ما علمه النبي ﷺ الصحابة، إذ كان يقول يوم الخندق:

والله لو الله ما اهتدينا		ولا تصدقنا ولا صلينا [1]

والصحابة في ذلك يطبقون كلام الله تعالى، كما قال: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١] فلا يستطيع أحد أبدًا أن يتزكى لولا أن الله تعالى هو الذي زكاه.

والعبد **لو استغرق قلبه في شهود المنة**، لم يبق لهذا القلب أن يشهد غير الله تعالى في أنه هو المعطي والموفق، وأنه لو شاء لحرمه، ولو شاء ﷻ ما أعطاه، ولجعله كهؤلاء الذين لا يعرفون إلى الله طريقًا ولا سبيلاً.

لذلك ينبغي أن نخرج من قلوبنا المصائب والآفات التي تشهد القلب هذه المعاني السيئة، من أن له مع الله تصريفًا، أو بذلاً وعطاء وتصدقًا ومنعًا، أو له مع الله تبارك وتعالى ترتيبًا في كونه، لا!.. **ليس لك مع الله تعالى في ذلك شيء، أنت مسكين، ولولاه ﷻ ما كان منك من عمل.**

---

١ - رواه الإمام مسلم (٤١٠٤)، يرويه من حديث البراء رضي الله عنه. ولفظه : (عَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى أَغْمَرَ بَطْنَهُ أَوْ اغْبَرَّ بَطْنُهُ، يَقُولُ:

وَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا		وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَــنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا		وَثَبِّتْ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا		إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْــنَا

وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ أَبَيْنَا أَبَيْنَا).

والنوع الثاني من المنة -كما قال ابن القيم-: **أن يمن بلسانه**؛ فيعتدي على من أحسن إليه بإحسانه، ويريه أنه اصطنعه، وأنه أوجبَ عليه حقًّا، وطوقه منة في عنقه؛ فيقول: أما أعطيتك كذا وكذا!

وهذه القضية لا يخلو منها أحد إلا من رحم الله تعالى! فلا تكاد ترى أحداً إلا وهو يشهد أنه قد منَّ على فلان، وأعطى فلانًا، ووهب فلانا، ووقف لفلان، ويظهر ذلك عندما يحدث موقف عكسي، عندما تنتظر من ذلك الذي تظن أنك فعلت له شيئاً أن يرده لك، فيخذلك ولا يعطيك مثلاً، أو تصاب، فإذا به يتنكر لك ولا يزورك مثلاً، هنا يكمن الامتحان الذي يبين: أنك فعلت لله وتنتظر منه العوض أم أنك على غير ذلك.

يقول ابن القيم: ويعدد أياديه عنده، أي: يعدد نعمه عليه. فيذكره بنعمه، كما يحدث هذه الأيام، فيقول: أنا فعلت وفعلت، انظر كيف أهملني ولم يفعل وانظر إلى أخلاقه وكذا وكذا!

قال عبد الرحمن بن زياد[1]: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئًا، ورأيت سلامك يثقل عليه فكف سلامك عنه، والمعنى: لا تفعل حتى السلام، إذا كان ذلك سيؤدي بك إلى أن يكون سببًا للمن عليه، أو سببًا لأن يتذكر هو موقفه الضعيف عندما كنت تمن

١ - هو شيخ أفريقية وقاضيها وأول من ولد بها من المسلمين عبد الرحمن بن زياد، بن أنعم الشعباني الأفريقي الزاهد الواعظ ، روي عن أبي أبي عبد الرحمن الجبلي وطبقته وقد وفد على المنصور فوعظه بكلام حسن وليس بقوي في الحديث توفي سنة ست وخمسين ومائة (انظر شذرات الذهب) .

عليه، أو عندما كنت تعطيه، أو تفعل له ، فليس المقصود النهي عن السلام ولكن المقصود هو تحقيق الإخلاص في العمل وعدم الأذى.

فانظر كيف راعى الإسلام ورسوله ﷺ والصحابة والتابعون هذه الأخلاق، ليتعلم المؤمنون كيف يكون عوضهم عند الله تعالى، فلا يعددون النعم على من أعطوه، لأنهم عند ذلك لا يكون عوضهم على الله تعالى، ولكن كأنهم يستبدلون العوض الذي ينتظرونه من الله بتعديد النعم على من صنعوا له صنيعا أو أعطوه شيئا.

فائدة: كان السلف يقولون: إذا صنعتم صنيعة فانسوها، أي: من أسدى معروفًا لأحد ... فلينسه، لماذا؟ **لأن الله تعالى يذكره**، وقد كتبه في صحيفته، وسيكافئه عليه أعظم المكافأة، فماذا ينتظر من العبد الفقير المسكين الذي لا يملك لنفسه شيئًا ؟

وفي ذلك قيل:

وإن امرءًا أهدى إليَّ صنيعة   وذكَّرنيها مرة لبخيل

وقيل:

صنوانٌ مَن مَنَح سائلَه ومَنَّ   أو مَن منَع سائلَه وضَنَّ

يقول الإمام ابن القيم: وحظر الله تعالى على عباده المن بالصنيعة، واختص به صفة لنفسه ؛ **لأن المن من العباد تكدير وتعيير، ومن الله ﷻ إفضال وتذكير.**

فإن الله تعالى إذا منَّ عليك بنعمه إنما يذكرك بفضله، وأنه اختصك من دون الناس بهذا الفضل، وهذا شرف لك ورفع لمقامك، وتقدير من الله ﷻ لك، وأخذٌ بيدك إلى الله تعالى؛ لتشكره على نعمه، ولتصرفها في مرضاته، وألا تصرفها في معاصيه؛ لئلا تمحق هذه النعم. لذلك لا ينبغي أن تنسب المنَّ لنفسك.

يقول ابن القيم: وكذلك الامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن يمن عليه، ولا تصلح العبودية والذل إلا لله.

فإن كنت تريد أن تذل من مننت عليه، وأن تكسره، وأن تستعبده بهذه المنن؛ فذلك كله لا يصلح إلا لله تعالى، كيف تتصور نفسك في هذا المقام من مقامات الألوهية؟!

وأيضًا فالمنة أن يشهد المعطي أنه هو رب الفضل والإنعام، وأنه ولي النعمة ومسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا لله تعالى؛ فإن مننت فقد حُزت لنفسك الأمارة بالسوء هذه صفة من صفات الرب جل وعلا.

وأيضًا فالمان بعطائه يشهد نفسه مترفعًا على الآخذ، مستعليًا عليه، غنيًّا عنه وعزيزًا، ويشهد ذل الآخذ وحاجته إليه وفاقته، ولا ينبغي ذلك كله لعبد.

أما إذا أُسْديَ إليك معروفٌ فلا تنسه؛ لأن من حسن عهد المؤمنين أن يتذكروا الذي فعله لهم إخوانهم؛ ليشكروهم عليه؛ لأنه من لم يشكر الناس لم يشكر الله تعالى [1]، فهذا هو حسن الأدب وعنوان الأخلاق الحسنة.

ثالثًا: انتظار ثواب العطاء يكون من الله تعالى

فالذي يعطي، قد أعطى ليتولى الله تعالى ثوابه ، أليس كذلك؟ فإن أعطيت امتثالاً لأمر الله، ومحبة لله تعالى، وإنفاقًا من مال الله الذي آتاك، إلى آخر هذه المعاني الحسنة التي ترجو بها ثواب الله تعالى؛ فأنت قد رجوت الله تعالى أن يرد لك هذا الثواب، وأن يأجرك بهذا العوض، وأن يرد عليك أضعاف ما أعطيت؛ فبقي لك عوض ما أعطيت عند الله تعالى، فأيّ حق بقي عند الآخذ حتى تعيره؟ أو تجعله يثني عليك أو يمدحك؟ أو أن ترفع عن نفسك المذمة ؟

لذلك فإذا مننت عليه فقد ظلمته ظلمًا بينًا، وادعيت أن لك حقاً عليه، لذلك يقول ابن القيم: ومن هنا والله أعلم بطلت صدقته بالمن. لماذا؟ لأن ثوابه وعوضه عند الله، فإذا منَّ على آخذ العطاء؛ فقد أخذ عوضه منه وآذاه، فذهب العوض الذي له عند الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] .

١ - رواه الترمذي (٣٥٢٤) ولفظه: (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرْ اللَّهَ) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وليس الأمر موقوفًا على المن بالمال، وإنما ذكر المن بالمال؛ لأنه أعلى ما يمنُّ به المرء؛ لذلك ذكره القرآن الكريم تنبيهًا على غيره من المن. فالمن بغير المال مذموم كذلك، كهذا الذي في قوله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾ وقد أشرنا إليها من قبل.

فلو جاء من يمن بصلاته، أو عبادته، أو ببعض المجهود الذي يبذله، فيقول: قد صليت وتصدقت وأنا أقوم الليل وأقرأ وردًا من القرآن وأقول أذكار الصباح والمساء، ولكن أحوالي سيئة لماذا؟ الجواب: من يقولِ ذلك يرى لنفسه هذه الأعمال، ويمنُّ بها على الله تعالى كما منَّ أولئك على الله تعالى بإسلامهم. فكأنه يقول: أنا صليت أين جزاء الصلاة الوارد في الحديث؟ قد قلت الأذكار، ومن قال سبحان الله وبحمده مائة مرة غفر له [1]، ومن قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير كان في حرز من الشيطان حتى يمسي [2] أين هذه النتائج؟ وأين هذه العواقب الحسنة؟ لماذا لم يحدث لي ذلك كله؟

---

١ - الحديث رواه البخاري (٦٤٠٥) ومسلم (٢٦٩١) ولفظ رواية البخاري : (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ).

٢ - الحديث رواه البخاري (٣٢٩٣) ومسلم (٢٦٩١) ولفظ رواية مسلم : (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ).

فكأنه يرى لنفسه حقًّا في هذا الثواب، وكأنه هو الذي ذكر بنفسه، وهو الذي صلى بنفسه، وقد ذكرنا عكس ذلك! ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] فكل هذه النعم من الله تعالى، لذلك فمن يرى نفسه قد فعل ويمن بهذا الذي فعله، دل ذلك أن ما فعله ليس نعمة من الله في حقه. بمعنى أدق، أنه على الحقيقة لم يصل ولم يصم ولم يفعل، لماذا ؟ لأن ما فعله لم يكن ابتغاء وجه الله تعالى. وذلك مثل أول من تسعر بهم النار يوم القيامة الذين ذكرهم النبي ﷺ في قوله[1]: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا. قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»؛ فحالهم: رضيتم بأن تعوضوا من العبيد وتركتم عوض الله تعالى فبطل جزاؤكم عنده.

١ - رواه مسلم (١٩٠٥).

ونذكر هذه المسائل، لأنه لن يتقدم أحد في طريق معرفة الله تعالى إلا بأن ينمو ثوابه، وأن يرى بركة هذا الثواب من الله تعالى، وأن يرى حسن معاملته لله، حتى يكافئه الله تبارك وتعالى على هذه المعاملة الحسنة بأضعاف مضاعفة، ويجازيه أعظم الجزاء؛ فتنمو أعماله، وتزكو أحواله، ويخلص قلبه، ويتقدم في السير إلى الله، ويرى بركة ذلك في سيره وفهمه وعلمه وعقله وماله وولده وأهله، فيكون عمله وعطاؤه لله تعالى، خالصًا بينه وبين ربه، لا ينتظر من الخلق شيئًا كثيراً ولا قليلاً، وإنما يهمه صلاح نفسه وتهذيب عمله، وإقبال قلبه على الله ﷻ، ومسارعته إلى ربه ﷻ ، فيرى العاقبة الحسنة لذلك.

يقول ابن القيم: فتأمل هذه النصائح من الله لعباده، وتأمل كذلك دلالته ﷻ على ربوبيته وإلهيته وحده، وأنه ﷻ يبطل عمل من نازعه في شيء من ربوبيته وإلهيته ولا يبالي، فهو سبحانه لا إله غيره، ولا رب سواه.

رابعًا: المجاهدة وأثرها في حفظ العهد على ترك المن

وهو متعلق بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٦٢] .

ف(ثم) تفيد التراخي، فلو أنفق اليوم ولم يؤذ المنفَق عليه، ثم جاء بعد سنة وذكَّره إنفاقه كان ذلك سببًا في حبوط عمله. يقول ابن القيم: وفيها فائدة أن المن والأذى ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه ضرَّ بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق؛ ولو أتى بالواو، وقال: ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لأوهمت تقييد ذلك بالحال، وإذا كان المن، والأذى المتراخي مبطلاً لأثر الإنفاق مانعا من الثواب؛ فالمقارِن أولى، وأحرى.

وهذه المسألة مهمة نفصل فيها شيئا ما.

وذلك لأنه مع طول العهد، ينسى المرء أنه كان يعامل ربه وينتظر منه الثواب، فإذا صادف ذلك صنيع سيئ من إخوانه؛ إذا به يتذكر لهم ما كان، ويمن عليهم بعد فترة طويلة من ترك المن، فيضيع ثوابه ويحبط عمله ! فإن أنفقت اليوم وبعد سنة مننت، ضاع الإنفاق الذي أنفقته اليوم وأنت لا تدري !

فالكثير - إلا من رحم الله - عندما يسمع هذه النصائح، ويحفظها زمنًا ما، إذا به عندما يأتيه نصائح أخرى، أو عندما تأخذه الدنيا وتنجرف به الأحوال، ينسى ما كان فيه من قبل من حسن المعاملة مع الله تعالى، ومن ترك المن والأذى، ومن الإخلاص في معاملته لله تعالى، وانتظار العوض منه ﷻ، ثم يعود مرة أخرى إلى الأخلاق المرذولة والمعاملة السيئة.

وقد يغلبه شيطانه ويسول له، خاصة إذا وقع من إخوانه موقفًا يحزنه أو يضايقه فيقول : "أنسيتم؟!" فيوقعه الشيطان فيما جاهد نفسه على تركه طويلاً. أليس هذا صحيحاً؟

وهذه المسألة تحتاج إلى مجاهدة النفس ومحاسبتها، فكلما عرض له عارض المن والأذى وتذكر الصنيع الذي صنعه، إذا به يجاهد نفسه على تذكر نصائح الله له، وتذكر

دلائل العبودية والإلهية، وتذكر حبوط العمل الذي يحبط بالمن والأذى. وكذلك ينبغي على المرء أن يستعين بربه ﷻ أن يصلح من نفسه هذه الأحوال السيئة والأخلاق الرديئة.

والقضية المهمة المرتبطة بذلك هي قضية أخذ العهد مع الله تعالى، **فأخذ العهود والمواثيق بداية طريق المجاهدة**. فمن لم يأخذ العهد على ترك المن مثلًا، فما الذي سيدفعه على مجاهدة نفسه بعد ذلك على ما أشرنا إليه من تذكر النصائح والدلائل؟

فأصحاب المجاهدة يأتي لهم الشيطان في هذه المسائل التي عاهدوا الله تعالى عليها فلا يزال بهم حتى ينقضوا عهد الله ﷻ، وذلك بخلاف من هم أقل منهم درجة من أهل الإيمان، الذين لا عهود لهم ولا مواثيق مع الله تعالى يجاهدون أنفسهم عليها، فهؤلاء يوقعهم في المعصية، أو ترك العمل الصالح، أو عدم السير إلى الله تعالى، أما أصحاب المجاهدة الذين في الدرجة الأعلى، فلا يزال بهم حتى يوقعهم في فصم العهود ونقض المواثيق التي أكدوها مع الله تعالى؛ بحيث يرجعون في عهدهم مع الله، ويقع بذلك النفاق في قلوبهم كما ذكر الله ﷻ: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦] حتى قال: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٧]، فهؤلاء لا يتركهم الشيطان حتى ينقضوا عهدهم مع الله تعالى؛ فهذه مزلة ينبغي التنبه لها، بالعض بالنواجذ على عهدك مع الله تعالى.

وتأمل نفسك، فإذا لم يكن لك عهد مع الله تعالى، كانت أمورك تسير كما اتفق، فلا تشعر بوسوسة الشيطان ولا بضغطه عليك، أما إذا عاهدت الله تعالى ولو على شيء يسير، كأن تصلي كل يوم صلاة الضحى أربع ركعات، تجد الشيطان قد وقف لك، فتأتي أول يوم فتصلي أربع ركعات بالكاد، وفي اليوم التالي يأتي الشيطان ولا يزال يقول لك: لا تصل الآن، انتظر بعدما تخرج من المسجد! انتظر حتى تفطر ! انتظر حتى تنام ثم تقوم للشغل! انتظر حتى قبل الظهر فأنت في أجازة ! ولايزال بك حتى لا تصلي هذه الركعات ويؤذن للظهر! أليس كذلك؟!

الحل إذن في هذه المسألة بعد الاستعانة بالله تعالى، **أن يقف المؤمن مع نفسه هذه الوقفة، فيجاهدها على ألا ينسى عهد الله**[1]، وأن يرى ثواب الله تعالى في هذا الثقل، وأن يعلم أن كيد الشيطان ضعيف، وأن يصبر ويصابر ويرابط حتى يعبر هذه المسافة الصعبة التي وقف له فيها الشيطان؛ فإذا بقلبه يسلم ويقوى، ويضعف كيد الشيطان عنده، ويستقيم سيره إلى الله تعالى.

فائدة: على المرء ألا يثقل على نفسه العهود. بمعني: ألا يقول مثلًا: لو فعلت كذا سأصوم شهرا، ولو وقعت في كذا سأتصدق بمبلغ كبير، لأنه عند ذلك سيجد أنه سيصوم السنة كلها، ولن يجد معه نقود يدفعها في الوفاء بهذه العهود، فيترك ذلك كله

---

١ - وقد ذكرنا تفصيل ذلك في رسالة المجاهدة.

جملة واحدة، فلا يستطيع أن يتابع سيره إلى الله تعالى؛ ويعينه على ضبط أحواله فيما يتعلق بذلك أمران:

الأول: أن يسأل ويقتدي ويتعلم كيف يحاول ويجاهد ويقطع الطريق، ويقطع قواطع الشيطان ويقوى عليها ، **الثاني**: أن يأخذ أموره في هذه القضايا **بما يستطع على الحقيقة**.

فلا هو يُثقل عليها ، وكذلك لا يتبع نفسه الأمارة بالسوء ! وذلك لأنه قد يقدر على صلاة عشر ركعات، بلا مشقة ولا ثقل على نفسه، فتأتي له نفسه الأمارة بالسوء فتقول له: يكفيك ركعتان! وتأتي له في الغد فتقول: إن شاء الله نم ساعة ثم تقوم لتصلي ركعتين ! لا مشكلة في ذلك! فينام ولا يصلي ركعتين ولا غيره، فتضيع نفسه عليه الخير وتخرجه عن العهد الذي أخذه.

فينبغي للمؤمن عندما يريد المجاهدة، **أن يجاهد نفسه فعلا على هذه الحال الذي يستطيعه**، ويحذر من وسوسة الشيطان التي تحمله على التقلل من مواد خيره، ومن مادة حياته وقربه لله تعالى، ومحبته له. وكذلك يقلل الوسوسة من رزقه وقوته ومدده إلى الله تعالى؛ لأن الشيطان يعلم أنه لو استمد هذا المدد فلن يستطع أن يقوى عليه، ولا يستطيع أن يكون له عليه سبيل من تلك السبل التي يخرجه بها ويعيده مرة أخرى إلى ضعف السير إلى الله تعالى.

خامساً: عاقبة ترك المن والأذى

وتأمل هذه المسألة وكيف تبينها الآية، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، الآية الثانية: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧٤] والفرق بين الآيتين، فيما يخص الجزاء، أن الآية الأولى: ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾أما الثانية: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ فزاد فيها "فاء".

وابن القيم يقارن بين عدم الفاء هنا، وبين وجود الفاء هنا؛ ليتبين جمال القرآن، وأن الفاء لما حُذفت في الأولى كان لها معنى، ولما أضيفت في الثانية كان لها معنىً آخر. يقول: إن **الفاء الداخلة** على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف **تفهم معنى الشرط والجزاء**، وأنه مستحق بما تضمنه المبتدأ من الصلة أو الصفة، فلما كان هاهنا يقتضي بيان **الحصر المستحق الجزاء دون غيره جرد الخبر عن الفاء**.

وملخص كلام ابن القيم أن قوله تعالى: ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ لما جردها عن الفاء أفادت معنى أن المستحقين لثواب النفقة هم فقط الذين ينفقون بغير منٍّ ولا أذى، فهؤلاء هم الذين لهم الأجر وليس للذين ينفقون بغير ذلك. فليس المقام مقام شرط وجزاء، بل مقام بيان لمن يستحق دون غيره.

أما في الآية الأخرى فيقول تعالى: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ بمعنى أن الموصول هنا له شرط أو صفة، وهذا الشرط أو الصفة متعلق بها الجزاء، فلو تحقق فيه الشرط أو الصفة،

تحقق الجزاء. وذكر فيها الإنفاق بالليل والنهار سرًّا وعلانية، وهو عموم الأوقات والأحوال، فأتى بالفاء في الخبر؛ ليدل على أن الإنفاق في أيّ وقت من ليل أو نهار أو على أي حال، سبب للجزاء على كل حال، فليبادر إليه العبد ولا ينتظر وقتاً أو حالاً معينين، **ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار، ولا نفقة النهار إلى الليل**، فإن نفقته في أي وقت إذا وجدت كانت سببًا لأجره وثوابه.

فلو أنفق بالليل نال أجره وجزاءه، ولو أنفق بالنهار كذلك، سراً كان الإنفاق أو علانيةً؛ فدخلت الفاء لتبين أنه في أي الأوقات وعلى أي الأحوال، فإن من أنفق فإنه يستحق أجر الإنفاق لوجود الحال التي يستحق عليها ذلك الأجر.

فالآية الأولى تبين المستحق للجزاء، والآية الثانية: تبين الوقت والحال الذي يأخذ عليه هذا الجزاء، ومحصلتهما سوياً، أن المنفق ليلاً أو نهاراً سراً أو علانية، يأخذ ثوابه ، إلا أن يكون ماناً، أو أن يكون مؤذيًا.

وفي النهاية، فانظر إلى عاقبة ذكر العبد ربه باسمه المنان وتنزل هذا الدواء على ذلك الداء الدفين في القلب، وهو حب الظهور والشهرة وتعديد الأيادي على من أنفق عليهم؛ فإن جزاءه كما يقول: ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، مثلهم لا يُخاف عليه، فلم تقل الآية "لا يخافوا" لكن ذهبت إلى أبعد من ذلك، وهو أنهم لا يُخاف عليهم، فكأنه يقال: دعهم بينهم وبين ربهم فإنهم: ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ انتهى أمرهم إلى الله تعالى، بألا خوف عليهم.

وإن قيل لهم ذلك حال فراق الدنيا كما جاء في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠] فلا يخافوا مما هم مقبلون عليه، ولا يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا، فلا يحزنون هم على أولادهم أن يحصل لهم كذا وكذا، ولا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا، ولا يخافون مما هم مقبلون عليه من أمر الآخرة.

الآية الثالثة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا



- علاقة الآية بالسياق القرآني الواردة فيه
- أهمية الإخلاص لله تعالى في النفقة
- انتظار ثواب الناس يبطل ثواب العطاء

أولًا: علاقة الآية بالسياق القرآني الواردة فيه

هذه الآية ليست تكراراً للآية السابق شرحها؛ فذلك لا يتسق مع بلاغة القرآن وعلوه وشرفه وعظيم قدره، إذ فيها فوائد جديدة ومعان تكمل أخواتها الواردة في الآية السابقة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وسوف نفصل بعض الشيء في تفسير الآية قبلها في السياق القرآني وهي قوله تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٣]، ونواصل شرح الآيات من كتاب طريق الهجرتين للإمام ابن القيم.

فبعد أن بيّن قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٣] فكيف يضبط المؤمن أخلاقه في الإنفاق؟ جاء قوله تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾ ليوضح ذلك المعنى الجديد، وهو: أن الصدقة المقرونة بالأذى **حسنة ولكنها مقرونة بما يبطلها**، فالقول المعروف مع ترك الأذى أولى من الحسنة والأذى، ولا ريب أن حسنتين خير من حسنة باطلة.

فلو أعطيت سائلًا، بطريقة جَعَلته يأخذ منك وهو ضائق صدره بعطيتك؛ فيقول لك مثلًا: "أغنانا الله عنك، ومن أعطاك يعطينا" فالآية تعلمك كيف يكون خلقك مع من أساء إليك في القول مع أنه قد أخذ منك ما أعطيته إياه.

ونبدأ بقوله: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ فالمعروف يعني: الذي تعرفه القلوب ولا تنكره، ولا يشترط أن يكون القول المعروف من صغير أو كبير، ولا يشترط أن يكون مما يأخذ عليه حسنات أو يدفع عنه سيئات. فلو أتى الصبي بفعل تعرفه القلوب ولا تنكره فهو معروف، مع أن الصبي ليس مكلفًا بهذا الفعل. لذلك كان المعروف والمنكر، أعم من السيئة والحسنة؛ لأن المعروف والمنكر يمكن أن يقعا من غير المكلف، ويمكن أن يكونا مما يعرفه الشرع ولم يحدد له ثوابًا أو عقابًا في إتيانه أو تركه.

وقوله: ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ هي العفو عمن أساء إليك، ﴿ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾، فلو أساء إليك السائل؛ فإن القول المعروف له والعفو عن هذه الإساءة خير من الصدقة التي يتبعها أذى، فلو جفا عليك السائل فاعلم أن عفوك عنه خيرٌ لك من أن تعطيه وتؤذيه.

لذلك يقول ابن القيم: فالقول المعروف: إحسان وصدقة بالقول، والمغفرة: العفو عمن أساء إليك بترك المؤاخذة، فلا تقابله بإساءته؛ فهما نوعان من أنواع الإحسان.

فائدة: من أراد أن يفتح الله ﷻ له باب عبادته وتوحيده باسمه المنان، وينزل عليه بركته، ويرى أثر هذا الاسم المشرف في إيصال ما يوصله الرب ﷻ لعبده من أنواع

الكرامات والبر والإحسان والصلة، عليه ضبط تصرفاته لتتصف بتلك الأخلاق، التي تحقق فيه القول المعروف والمغفرة والتجاوز والعفو، وأن تتعلم قول المعروف مطلقًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وذلك ذكرناه في اسمه الرفيق ﷻ، كيف يكون المؤمن رفيقًا في كل شيء؟ كما قال ﷺ: **«إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»**[١]، و« **مَهْلاً يَا عَائِشَةُ؛ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ.»**[٢]، و«**يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**»[٣].

فائدة: **ضابط العطاء والمنع: ألا يكون لهوى:** فالمعيار والمحك الذي يتميز به عمل المؤمن أن يكون لله تعالى، فلو أنه كان يعطي فلانًا لفقره وهو قريب له، فلما أذاه وتكلم عليه واغتابه أو وقع في عرضه أو شتمه إذا به يمنع عنه، يقول له: والله لن أعطيك طالما أنك قليل الأدب ولسانك سيئ، ومعاملتك سيئة، كنت أحسبك رجلاً طيبًا وتستحق، فإذا بك لا تستحق!.

---

١ - رواه مسلم (٢٥٩٤) عن عائشة رضي الله عنها.

٢ - رواه البخاري (٦٢٥٦) ومسلم (٢١٦٥) ولفظه (عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنْ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ. فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: عَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهْلاً يَا عَائِشَةُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَقَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ).

٣ - رواه مسلم (٢٥٩٣) عن عائشة رضي الله عنها.

فعليك أن تتعلم مطلقًا أن تكون المغفرة التي غفرتها، والعفو الذي أسديته سبباً في أن يعفو الله عنك، وأن يغفر لك كما قال: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[1] [النور: ٢٢] وذلك لما منع الصديق ﷺ رِفْده عن مسطح لما تكلم في السيدة عائشة رضي الله عنها[2].

فالفيصل في هذه المسألة : أن تكون أعمالك لله لتتنزل عليك بركته، فتعطي وتصل على الغضب والرضا؛ فإن كنت تصل أحدًا أو تزوره فإذا حدث منه حادث منعت زيارته، وقطعت رفدك عنه، وأوصدت بابك دونه، فراجع إخلاصك. فالمعيار والمحك الذي يبين كيف يطلب المؤمن من ربه ﷻ باسمه المنان أن يتحقق بالصفات المطلوبة: يعطي ويمنع لله تعالى، إن تحقق ذلك كان سببًا لقبول الدعاء، وفتح الله تعالى، ونزول بركة هذا الاسم، وظهور آثاره على المؤمن.

وختمت الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته المعاني الموجودة فيها، وهما في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾.

---

١ - ولا يأتل: يعني لا يحلف أبداً؛ لماذا؟ الجواب: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ فقال سيدنا أبو بكر ﷺ: بلى أحب أن يغفر الله لي، وأعاد لمسطح ما كان ينفقه عليه من قبل، وكأن شيئا لم يحدث، وحدث التجاوز وحلت المغفرة ووقعت الإساءة وجاء العفو عنها؛ لأنه ﷺ يحب ما عند الله، وكل معاملته لله، وإن كان قد غضب على مسطح لما تكلم في زوج النبي ﷺ، وهي ابنة الصديق رضي الله عنهما؛ولكن الله تعالى لا يرضى لغلية المؤمنين وأوليائه الصالحين إلا أن يكونوا في أعلى الأخلاق وأفضلها وأكملها وأزكاها وأنماها وأشملها !

٢ - حديث الإفك المعروف الذي رواه البخاري معلقًا تعليقًا مجزومًا به مطولاً (٢٦٦١) ورواه مسلم متصلاً (٢٧٧٠).

وذكر ابن القيم معنيين في ذلك:

المعنى الأول: أن الله غني عنكم، لن يناله شيء من صدقاتكم، فهو الذي أعطاكم هذه الصدقات من فضله إذ المال مال الله ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧] كما أمر وذكر. فليس لكم من ذلك شيء لا في الإنفاق ولا في قبول النفقة، إذ إن قبولها محض فضل الله تعالى.

وهو مشابه لما جاء في قوله: «أبوء لك بنعمتي عليّ، وأبوء بذنبي» [(١)] فيدخل العبد على الله تعالى من باب الإفلاس الصرف والفقر المحض يُقِرُّ له بالذنب، ويعترف له بالنعمة والإحسان، ويسير إلى الله بين هذين الجناحين، مشاهدة منة الله عليه وإحسانه ومطالعة عيب النفس والعمل، مستوجباً ذلك له الشكر، والمحبة من ناحية، و الذل والتفتيش في عيوب النفس والعمل من ناحية أخرى.

لذلك قال هنا: الله غني عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم، وإنما الحظ الأوفر لكم في هذه الصدقة؛ فنفعها عائد إليكم، لا إليه سبحانه، فكيف يمن المرء بنفقه ويؤذي، مع غنى الله التام عنها وعن كل ما سواه ؟

١ - رواه مسلم (٢٥٩٣) ولفظه (عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ أَوْ حِينَ يُمْسِي: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ بِنِعْمَتِكَ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ أَوْ مِنْ لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ).

وقوله: ﴿ حَلِيمٌ ﴾ يفيد أنه مع الخلق السيئ الذي تبدونه من المن فهو سبحانه حليم؛ إذ لم يعاجل المنان بالعقوبة، **فيحلم على عباده العصاة**، لعلهم يرجعون، ويتذكرون، ويتوبون إليه.

وهذا الختام فيه أيضاً **وعيد وتحذير**، فاحذر إن كنت تمن بعملك أو بقولك أو بمالك أو بعلمك أو بغير ذلك فالله ﷻ غني عنك وعما قدمت، فهو يحلم عنك لترجع وتكف، فإن لم تفعل أخذك ﷻ أخذ عزيز مقتدر. فهذا الوعيد والتحذير من الله تعالى، من أن يتمادى المرء في هذا الخلق، أو أن يستمرئه ويسير عليه، بل لا بد أن يعالج نفسه بالتوبة، وأن يوقفها عند حدها؛ تراجع ربها ﷻ، وتقوم بما يكون سبباً في صلاحها.

المعنى الثاني: أنه ﷻ مع غناه التام من كل وجه فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة . وكأن المقصود بذلك: أن العبد الجاهل مع غناه، ليس غنيًّا على الحقيقة، بل فقير ولا يتصف بالحلم والتجاوز، بل على العكس يؤذي السائل ويمن عليه، ومن باب الأولى أن يكون العبد الفقير المقصر المفرط، أكثر حلمًا في معاملة الفقراء، لماذا؟ لأن الله تعالى مع غناه التام، حليم ويصفح ويعفو مع أن الخلق يؤذونه ﷻ كما قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وهو سبحانه لو منع عنهم شيئًا مما أعطى لأهلكهم جميعًا.

ثانيًا: أهمية الإخلاص لله تعالى في النفقة

ننتقل إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ وكأن الآيات أخذت مبدأ التدرج، ففي الآية الأولى قال: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ ﴾ [البقرة: ٢٦٣] على معنى تشويق الناس وترغيبهم في الصدقة، وحملهم على القول الحسن والكلام الجميل بالأسلوب الذي تستقبله القلوب والعقول؛ فتتحرك به إلى الله تعالى.

ثم في هذه الآية ينتقل الكلام إلى الوعيد الشديد، بتشبيه الذي يفعل ذلك بالكفرة ومن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، في عدم الإخلاص لله تعالى، وهو صحيح، لذلك قال: ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ ولم يقل: ولا يؤمن بالله ورسله مثلاً، أو ولا يؤمن بالله وكتبه، وذلك لأن هذا المعنى متعلق بالإخلاص. إذ إن الذي يمن لا يؤمن بيوم آخر سيأخذ فيه جزاءه، فهو يريد جزاءه عاجلاً على سبيل العوض من الذي يقف بجواره؛ غير منتظرٍ اليوم الآخر، الذي يُثيب الله تعالى فيه المخلصين، ويعاقب فيه العصاة المرائين والكفرة المفسدين . لذلك قال: ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ فعوضه عند الناس، ولو كان يؤمن بالله كان يخافه، فيعمل على الخوف من الله، أو يعمل على الإحسان أن الله يراه؛ فإن لم يكن يراه فهو يراه ، فإن لم يعمل على ذلك فليعمل على الإيمان باليوم الآخر، و معناه أنه متى ما قدم شيئًا في الدنيا وجده ووجد ذخره في الآخرة علاوة على ما يعطيه الله عليه في الدنيا.

أما من لا يؤمن باليوم الآخر، فلا ينتظر في اليوم الآخر جزاء، ولا عوضًا، ولا ثوابًا، ولا ينتظر شيئاً من ربه تعالى، فيحاول أن يستوفي حقه في الدنيا؛ لذلك تجد الكفرة اليوم، كلهم ماديون، مقابل أي خدمة تدفع المقابل، لا يوجد لديهم شيء اسمه إغاثة ملهوف مثلاً، فلو أن سيارة صدمتك فلن يقف أو يحملك ويذهب بك إلى المستشفى، فهو لا ينتظر ثوابًا ولا غيره ويقول: لماذا أفعل ذلك ما دمت لن أحصل على مقابل؟!

لذلك قال الله تعالى هذا القول: ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ ورئاء الناس يعني: مراءاة لهم ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

وهذه آية عظيمة فقد تضمنت الإخبار بأن المن والأذى يحبط الصدقة وهي: ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ وهذا دليل على أن الحسنة قد تُحْبطُ بالسيئة كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

وقوله: ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ يعني: لا تبطلوا صدقاتكم كإبطال الذي ينفق ماله رئاء الناس، أو لا تبطلوا صدقاتكم كالذي ينفق ماله رئاء الناس، وهذان المعنيان في الآية؛ فيكون الأول تشبيه الإبطال بالإبطال، ويكون الثاني لا تبطلوا صدقاتكم في إنفاقكم كهذا الذي ينفق رئاء الناس.

وقوله: ﴿ فَمَثَلُهُۥ ﴾ أي مَثَل هذا المنفق الذي بطل ثواب نفقته: ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴾ والصفوان هو الحجر الصلب الأملس، وفيه قولان أحدهما أنه مفرد، والآخر أنه جمع.

وقوله: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾ فيه ثلاث تشبيهات؛ لذلك يقول الإمام ابن القيم: هذا من أحسن التشبيهات وأمثلها، **فالتشبيه الأول** شبه فيه قلب المنفق الذي أبطل صدقته بالحجر الأملس؛ لعدم انتفاع صاحبه به؛ لأن قلب المؤمن قلب حي حساس متحرك، ينتفع به صاحبه، وتتحرك فيه إرادة الخير والتعلق بالله والاطمئنان إلى ذكره، فهو ليس حجرًا صلبًا لا يؤثر فيه قول، ولا موعظة، ولا تذكرة.

وشبه أثر الصدقة بهذا التراب الذي كان على الحجر. **وشبه** الإبطال والإحباط لهذه الصدقة بذلك الوابل الذي أزال أثر هذه الصدقة من على الحجر؛ فعاد الحجر أملس شديدًا صلبًا كما كان، فلا يقدر المنفق حينئذ على شيء من ثوابه لبطلانه وزواله.

وهذه الآية فيها معنى آخر، وهو: أن المنفق لغير الله هو في الظاهر يعمل عملاً يترتب عليه الأجر، ويزكو له الثواب وينمو؛ لأن أي ثواب ينمو عند الله تعالى خاصة الصدقات، فالصدقة عند الله تعالى تصل إلى سبعمائة ضعف كما قال سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ﴾ [البقرة: ٢٦١]، ولكن هل هذا الثواب الذي لا ينفق صاحبه لوجه الله تعالى ينمو وينبت السنابل كما قالت الآية؟ لا ينبت. لماذا؟ لأن تحت التراب الذي يبذر فيه هذا

البذر حجر صلد أملس، هذا الحجر يمنع قبول هذا البذر، فيمنع ثمرته بعد ذلك، فيظل يضع بذراً، فلا ينبت ولا يُخْرِج شيئًا، بل يضيع عليه أثر هذا الذي ينفقه من أوله إلى آخره ، فينفق ويبذر، ولا يحصل شيئا؛ فأضاع كل ما بذره من مال في ظاهره لله تعالى؛ لأنه إنما يضع ذلك في هذا الحجر.

وكل ذلك نذكره حتى يتعلم المؤمن الإخلاص لله تعالى، وكيف يكون على هذه الحال الحسنة الذي تُنْزِل عليه بركة حظه من اسم الله المنان ﷻ، وكيف يتعلم هذه القضايا؛ لتكون سببًا وحصنا حصينًا يتقبل الله تعالى به ذكره له وطلبه منه بالمنان.

ثالثًا: انتظار جزاء الناس يبطل ثواب العطاء

وكذلك ففي قوله ﷻ: ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ نهيٌ عن المن والأذى، فإذا كان المن وحده يبطل الصدقة فما بالك بالمن والأذى؟ أو بالأذى وحده؟ وهذا الخلق -كما ذكرنا- لا يدل على تعلق القلب بالله، وامتلاء القلب من الرب، وانتظار رحمة الله تعالى وثوابه، أو أنه مخلوق لتحقيق هذه العبودية لله تعالى؛ هو يتعبد ربه ﷻ بهذه الأسماء، ليحصل ما عند الله لا يحصل ما عند الناس؛ لذلك كان الرضا بما قسمه له ربه، أو المحبة لثواب ربه، أو الاهتمام بعناية الله به، وتقريب الله إياه ﷻ قد شغل عليه قلبه حتى لم يبق في هذا القلب شيئًا ينتظر به الناس؛ لأن انتظاره للناس انتظار للزائل، انتظاره للناس خروج عن الإخلاص.

لذلك قال: ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] المن مبطل لهذه الصدقات، والأذى أشد إبطالاً، ولو اجتمع المن والأذى كان الإبطال قاطعًا لا مرية فيه ولا شك.

فالمولى ﷻ يحذرك بهذا المعنى أنك إن انتظرت أحدًا، قطعك من طريقه فهو ﷻ سيمحق كل ما تبتغي من ورائه ويبطله، **فلن تأخذ شيئًا مما فعلت من هذه الصدقة، ولا من ذلك المعروف؛** بل قد أبطل عليك ذلك، وكتبت عليك معصية المن، وأثمت إثم الأذى من الله تعالى وهذا قمة الجهل والسفه.

لذلك كانت هذه المسألة من المسائل التي لو تفكر المؤمنون المتقون في كونها مسألة يعقل المؤمن فيها حدود الشرع الذي ينبغي أن يكون هدفه ومقصوده؛ لتغير الحال، وإن كان العقل وحده ليس كافيًا في أن يسير المؤمن إلى الله؛ لأنه يعرف أن النظر حرام،

والغيبة حرام، والسخرية حرام، وكذا حرام، ومع ذلك يواقع هذا الحرام، ويعرف أن القيام والصيام والصدقة والزكاة طاعات تقرب إلى الله، ومع ذلك يقصر عنه وينام عنه، ويغفل عنه !

العقل إذن وحده ليس كافيًا، بل **لا بد من معونة الرب**؛ لتثبيت هذا العقل وإنارته، ولحمل هذا القلب على هذه الأعمال، وتيسيرها له ﷻ، والله يمن عليهم إذ هداهم للإيمان كما ذكرنا، فإن كان يمن عليهم؛ فله المن، وله الثناء الحسن الجميل، والمؤمنون ليس لهم المن، وإنما لهم إن فعلوا أن يأخذوا جزاء فعلهم من الله ﷻ تكرماً وتفضلاً.

فإذا رأى المرء من نفسه المنَّ، ينبغي أن يعود عليها باللوم، وأن يعود عليها بالمجاهدة؛ ليخرجها عن إبطال عملها، **ماذا استفدت عندما تعمل وتعمل وتعمل، ثم تأتي في نهاية المطاف لتبطل كل هذه الأعمال؟** وتأخذ بدلاً منها سيئات وذنوب ومعاصي تحملها عند الله تعالى؟

كيف يحصل ذلك؟ يحصل ذلك بأن يذكر ربه باسمه المنان ﷻ، فيكثر من ذكر هذا الاسم، كما أمر الرب ﷻ، وأن يدعو الله ﷻ به: اللهم أنت الحنان المنان كما ورد في لفظ الحديث، الذي ذكرنا في حديث ابن حبان والحاكم وهذا متن حسن الإسناد. فيدعو الله كما ورد عن النبي ﷺ أدعوك بأنك أنت الحنان المنان الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، بديع السموات والأرض .. إلى آخر ما ورد في هذا المتن العظيم من كلام النبوة المقدس في دعاء الله تعالى بهذا الاسم [١].

---

١ - تم تخريجه.

الآية الرابعة:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ
عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾

- بشرى الله تعالى للمؤمنين بالتمكين
- علاقة الآية بالسياق القرآني الواردة فيه
- الله يريد المنة على المستضعفين
- عظيم قدر منةِ الله تعالى
- قدرة الله تعالى في إهلاك فرعون وقومه



أولًا: بشرى الله تعالى للمؤمنين بالتمكين

موعدنا في هذه الفقرات مع قوله ﷻ: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٥-٦]، وهي من أعظم الآيات الجميلات في القرآن الكريم التي تبين أشياء كثيرة يتعلم بها المؤمن كيف يحب كلام الله، وكيف يظهر له جمال هذا القرآن وبلاغته، وكيف يظهر في القرآن هذه المعاني الكثيرة في هذه الكلمات القليلة التي تقبل بقلبه على الله تعالى كما سيتبين من شرح هذه الآيات .

وهذه الآيات هي مطلع سورة القصص، التي نزلت بالقرب من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وفي هذه الفترة حدث للمؤمنين من أصحاب النبي ﷺ ما حدث من شدة ومشقة وعنت وترك الأهل والمال والولد، والدار والوطن، ووصلوا إلى تلك الحال الصعبة التي حكاها القرآن، وأتت بها السيرة؛ فنزلت هذه الآيات لتبشر المؤمنين بأن تمكين الله تعالى قد قرب لهم بعد صبرهم وثباتهم على دينهم وتحملهم الأذى في مكة ، **ولتبين لهم أن هذا الليل أوشك أن ينقضي ، وأن صبح التمكين ونصر المؤمنين قَرُبَ أن ينبلج** ، ولتكون هذه الآيات مطمئنة لقلوب المؤمنين أن الله تعالى لم يفعل ذلك ليهلكهم أو يدمرهم أو يعذبهم، وإنما: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [الأنفال: ٣٧] ، وليهلك الكفرة عن بينة، وأن الله تبارك وتعالى بين لحظة وأخرى، سيرفع عنهم البلاء، إن استحقوا ذلك، باستمساكهم بأمر الله تعالى، **وأن الله تبارك وتعالى يهلك الجبارين والمتكبرين مهما علوا**

ومهما طغوا ومهما بغوا في هذه الحياة الدنيا، وحصلوا فيها، فما فرعون الذي ادعى: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ عنهم ببعيد! فقد وصل إلى الدرجة العليا في التكبر والبغي والظلم التي لم يصلها أحد في زمنه، ومع ذلك كانت الآية العظمى من الله تعالى بإهلاكه، فلما تكبر إلى هذه الدرجة أغرقه الله تعالى وجنوده، فلم يمنعه هذا العتو والبغي والفساد والقوة والعظمة التي كان فيها، من إهلاك الله تبارك وتعالى له، أو أن يأخذه أخذ عزيز مقتدر!

من ناحية ثانية يظهر في هذه الآيات هذا المعنى الرائق الجميل هو **المن من الله تعالى على الذين استضعفوا**؛ لتكون هذه الآية سببًا لشرح صدور المؤمنين، وتثبيتهم، والربط على قلوبهم، والبشرى لهم؛ بأن الله تعالى قد يمن عليهم حال الاستضعاف، ويرفع عنهم، ويهلك أعداءهم، وغير ذلك مما حدث لنبي الله موسى – عليه وعلى نبينا الصلاة السلام –، وقومه؛ وليتميز لهم في نفس الوقت كيف أن هؤلاء المستضعفين في ظاهر الحال، الذين كانوا يقولون لموسى عليه السلام: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] فأهلك الله عدوهم واستخلفهم في الأرض، قال : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩].

وهذا ما سنشير إليه؛ ليكون المؤمنون على بينة من أمرهم في استضعافهم، إذ هم للأسف مستضعفون وفي نفس الوقت مقصرون؛ في دينهم واتباع سنة نبيهم ﷺ، والقيام بحق نصرة هذا الدين، وفي الجهد والخدمة لرب العالمين ﷻ، ويريدون أن يأتيهم النصر من عالم الغيب! فتجد كل مقصرٍ ينتظر أن يتحقق موعود الله تعالى بالنصر، يقول:

إن شاء الله ربنا سينصرنا! وهذا النصر ينتظره من لا شيء! نصراً يأتي بغير أسبابه! بأن يخرق الله له نواميس الكون؛ فيرى نصر الله تعالى وإذلال الكفرة وهزيمتهم.

أصحاب رسول الله ﷺ عرفوا الطريق، فتحملوا وبذلوا وجاهدوا وصبروا، ففعل الله تبارك وتعالى لهم بعد ذلك ما قص القرآن وقصته السيرة من رَفْعِ مرتبتهم في الدارين ونَصْرِهم على أعدائهم، وتمكينهم في أرض الله تعالى.

ثانيًا: علاقة الآية بالسياق القرآني الواردة فيه

نبدأ من قوله تعالى: ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص: ٣] ، والتلاوة هي القراءة لكلام مكتوب أو محفوظ كما قال النبي ﷺ: ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النمل: ٩٢] فما كان محفوظًا أو مكتوبًا نسميه تلاوة عند القراءة، وجعلت التلاوة على[1] النبي ﷺ وحده؛ لأنه الذي يتلقى الوحي من السماء، وإسناد التلاوة إلى الله إسناد مجازي لأنه الذي يأمر بتلاوة ما يوحى إليه من الكلام والذي يتلو حقيقة هو جبريل بأمر من الله تعالى.

وعبر عن الخبر بالنبأ في قوله ﷻ: ﴿ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾ ؛ لأن النبأ يفيد أنه خبر ذو شأن وأهمية لهؤلاء المستمعين، ومهد الله تعالى لهذا النبأ بقوله تعالى: ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ ﴾ للتشويق لهذا النبأ الذي هو خبر عظيم سيأتي، وأن المؤمنين محتاجون إلى أن يسمعوا هذا القصص الجميل، وإلى أن ينظروا منه مواضع العبرة والعظة؛ ليكون تثبيتًا لهم، وليكون شرحًا لصدورهم ، وليكون كذلك بشرى لهم بأن يهزم الله أعداءهم، وأن ينتقلوا من الاستضعاف إلى القوة والتمكين.

واللام في قوله تعالى: ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لام التعليل أي: نتلو عليك لأجل قوم يؤمنون؛ فكانت الغاية من تلاوة النبأ على النبي ﷺ، هي أن ينتفع بذلك قوم يؤمنون،

---

١ - يتعدى فعل "نتلو" بحرف "على" كقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾ [البقرة :١٠٢]، و: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [الأنفال: ٢] و: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة :٢٥٢]؛ راجع ابن عاشور –رحمه الله– التحرير والتنوير، تفسير الجزء العشرين، صـ٦٤-٦٦.

والمقصود أن ينتفع بها المؤمنون، ولكن جاء التعبير الجميل ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالمضارع ولم يقل المؤمنين، ليفيد تمكن الإيمان منهم، واستعمال المضارع أبلغ في التعبير لأنه يفيد التجدد والاستمرار، إذ إن إيمانهم موجود ومستمر ومتجدد، وكلما سمعوا موعظة وعبرة ازداد وتجدد فيهم هذا الإيمان.

وتخصيص المؤمنين بالتلاوة لأجلهم تنويه بأنهم الذين ينتفعون بالعِبَر والمواعظ لأنهم بإيمانهم أصبحوا متطلّبين للعلم والحكمة متشوفين لأمثال هذه القصص النافعة ليزدادوا بذلك يقيناً.

والمراد بقوم يؤمنون، يعني المتلبسين بالإيمان؛ لأن الإيمان شأنهم وسجيتهم، فأجرى وصف الإيمان على قوم؛ ليفيد أن كونهم مؤمنين هو من مقومات كينونتهم[1]، وأن تكون هذه البشارات للمؤمنين في كل زمان.

الآية التالية، هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ وهي مرتبطة بالآية التي قبلها، ويسميها أهل اللغة **بيان** لقوله: ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ ﴾، فيكون المعنى: ما الذي سنتلوه؟ نتلو عليك كيف علا فرعون في الأرض، وكيف جعل أهلها شيعًا، وكيف كذا وكذا.

---

١ - منقول بتصرف من كلام ابن عاشور رحمه الله.

وهي كذلك مرتبطة بما بعدها، وهي آية المن التي نحن بصددها، وهي قوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ ﴾ [القصص: ٥]؛ لأن هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فيكون المعنى: ونتلو عليك كذلك أننا نريد أن نمكن المستضعفين في الأرض، وننصرهم، ونهزم عدوهم، مع أن فرعون علا في الأرض وتكبر.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ تبين هذه المعاني من معاني الفساد الذي كان سبباً لهلاكه، ليتعلم المؤمنون المتقون أن هذه المفاسد، التي ذكر الله تبارك وتعالى، هي أسباب الدمار والهلاك.

وابتدأت القصة في قوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ بذكر أسبابها؛ لتكون عبرة للمؤمنين، فعندما يسأل المؤمن: ما السبب في خسف الله تعالى بفرعون وقومه وإغراقهم؟ أجابت الآية: العلو والتكبر والإفساد في الأرض؛ وذكر المفسرون أن تقديم سبب إهلاك فرعون وقومه، **ليكون عبرة للمؤمنين لئلا يكونوا مثله أبداً**، فيعتبرون، ويبتعدون عن مواطن الهلاك التي بين الله تعالى أسبابها، ويكونون على حذر منها، لأن الله تبارك وتعالى يهلك من تشبه بها، أو اتصف بها.

ويبين ذلك أن العلو والتكبر من قبيح الخلال، **فلولا تجبر فرعون وتكبره، ما حل به وبقومه الاستئصال، ولما خرج هؤلاء المستضعفون من الذل الذي كانوا فيه.**

وترتبت على اتصاف فرعون بهذه الصفة التي يحذر الله تبارك وتعالى المؤمنين منها نتيجتان:

الأولى: هلاك فرعون واستئصاله.

والثانية: خروج بني إسرائيل من الذل والاستضعاف إلى النصر على هذا الفرعون والتمكين في الأرض.

وقد صوّر الله تعالى، في كلمات القرآن الكريم، عظمة فرعون في الدنيا بقوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ، وهو تصوير بليغ يبين عظمة اختيار الألفاظ ودقتها في إيصال المعاني الجميلة ، وذلك لأن قوله: ﴿ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ على قِصرها تبين أنه بلغ في العظمة مبلغًا لم يبلغه أحد، فلم يذكر له تصويرًا آخر يدل على مدى ما هو فيه من عظمة، وما هو فيه من مملكة متسعة وأرض وأنهار تجري من تحته وما سخر الله له، ولم تصور الآية لأي مدى قد وصل العلو، فدل تركها هكذا على علو عظيم.

وما قيمة تصوير هذه العظمة؟ **أن يفهم المؤمن عظمة الله تعالى وقوته وقدرته على إهلاك هذا الطاغوت، ولتكون العبرة بهلاكه بعد ذلك العلو من أكبر العبر** .

والعلو في قوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ يقصد به العلو المذموم، لا العلو الممدوح أو المباح. لأن هناك من العلو ما هو كالكبر، فهذا مذموم، أما الذي ليس مذمومًا فهو أن يترجح أحد على أحد.

والعلو المذموم المذكور في الآية: علوٌ معنوي، كالذي ذكر في ختام آيات إهلاك قارون أيضاً، في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ

وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] ومعناه الكبر ، بأن يستشعر المرء نفسه عاليًا على موضع غيره ، لا يساويه أحد.

فأصبح كل شيء محتقراً بالنسبة إليه، فهو علو مستعار لمعنى التفوق وغيره، وهو غير محقوق لحق، ولا يقوم عليه حق لأي أحد. فيظن صاحبه أنه غير محقوق لدين أو شريعة أو رعي حقوق المخلوقات معه، فإذا استشعر شيئًا من ذلك لم يعبأ في تصرفاته بصلاح ولا تجنب فساد وضر، وإنما يتبع ما تحدوه إليه شهواته، وما يرضي هواه، وحسبك أن فرعون كان يجعل نفسه إلهًا !

وهذه المسألة التي نراها في دنيانا اليوم: بأن يرى المرء نفسه فوق غيره؛ فلا يجعل حسابًا لأحد بعد ذلك، فليس مرتبطاً بدين يقوم به، ولا بخُلق يزعه ويربط تصرفاته وأحواله، ويقيد منها مع الناس، ولا يرعى حقوقًا لأحد، ولا يعبأ بمراعاة مصالح ولا بتجنب مفاسد ولا بدفع ضر ولا بجلب مصلحة، وإنما يتبع ما يحمل عليه هواه وشهوات نفسه.

والنوع الآخر من العلو، هو رجحان أحد في أمر من الأمور؛ لأنه جدير بالرجحان، وهو علو غير مذموم. فلو رجحنا أحدًا لعقله، أو لعلمه على الجاهل، أو لصلاحه، أو لذكائه، أو لسبب عادي من القيام بمصالح المسلمين ومراعاتها، كالقائد بالنسبة لجنوده، فلا بد أن يكون هذا الأمر موجودًا في الترجيح حتى يسير النظام، وأعدل الرجحان وأفضله من قِبل الدين والشريعة، كرجحان المؤمن على الكافر، والتقي على الفاسق، قال تعالى: ﴿ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ

أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ ﴾ [الحديد: ١٠] وكما ذكر الله تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٣] وكما قال المولى ﷻ: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

تنبيه: لا يعني هذا أن يتكبر أصحاب هذه الدرجة على غيرهم ، **وإنما عطاء الله تعالى لهم ليتواضعوا وليخبتوا وليصلحوا دينهم وأحوالهم.**

قال ابن عاشور[1] – رحمه الله -: وفرعون هذا هو رعمسيس الثاني، وينطقونها رمسيس الثاني، ورعمسيس نسبة إلى رع الإله المُدَّعى، وهو الملك الثالث من ملوك العائلة التاسعة عشرة في اصطلاح المؤرخين للتاريخ الفرعوني، وكان فاتحًا كبيرًا شديد السطوة وهو الذي وُلد موسى -عليه السلام- في زمانه على التحقيق. وقوله: ﴿ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ والمعنى الأول للأرض: أرض مصر ؛ حيث مقر المملكة، فالتعريف فيها للعهد، المعنى الثاني أن يكون المراد بالأرض جميع الأرض المشهورة حينئذ. لماذا؟ لأن ملك رعمسيس الثاني كان ممتدًا من بلاد الهند إلى نهر أطونة في أوروبا، وكان علوه أقوى من علو ملوك الأرض وسادة الأقوام.

قوله: ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أي: جعل أهل مصر شيعًا؛ حتى يتسنى له أن يحكمهم، وحتى يتسنى أن يضرب ضعيفهم بقويهم، وحتى يبقوا متفرقين لا يستطيعون القيام في وجهه، أو التألب عليه. وهذه عادة كل حاكم يريد أن يبقى على هذه الحال، كما ذكر المستعمرون الذين احتلوا أرض المسلمين: فَرِّقْ تَسُدْ .

---

١ - التحرير والتنوير، تفسير الجزء العشرين صـ٦٦-٦٩.

قوله: ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ وهذه هي الطائفة الإسرائيلية، قوله: ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ . وجملة ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ تعليل لجملة ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ . فإذا قلنا : لماذا تكبر فرعون في الأرض ؟ قال: لأنه كان من المفسدين؛ فلو أنه كان من المصلحين ما تكبر وما طغى.

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ فيه أيضًا دليل، **على أنه إفساد لا صلاح معه**؛ لأن فعل الكون "كان" يفيد تمكن خبر الفعل من اسمه، أي: تمكن الإفساد من فرعون لدرجة عظيمة، فكأن الآية تصف شدة تمكن الإفساد من خلقه.

كما نقول: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٤] فيكون ذلك دليلاً على أن الله تعالى متصف بالسمع والبصر لنهاية الاتصاف الذي يليق بالله تعالى، في أشد غايات التمكن.

وجاء الوصف بتمكن الإفساد من فرعون، لأن فعله اشتمل على مفاسد عظيمة:

المفسدة الأولى: التكبر والتجبر، فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمة. منها: **احتقار الناس، والاستخفاف بحقوقهم، وسوء عشرتهم، وبث عداوته فيهم، وسوء ظنه بهم**، وأنه لا يرقب فيهم موجبات فضل سوى ما يرضي شهوته وغضبه؛ فإذا انضم إلى ذلك أنه ولي أمرهم وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضية سوء رعايته لهم، والاجتراء على دحض حقوقهم ، وأن يرمقهم بعين الاحتقار فلا يعبأ بجلب الصالح ودفع الضر

عنهم، وأن يبتز منافعهم لنفسه، وأن يُسخر من استطاع منهم لخدمة أغراضه، وألا يلين لهم في سياسة؛ فيعاملهم بالغلظة وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته.

وهذه الصفة هي أمُّ المفاسد وجماعها؛ لذلك قدمت على بقية المفاسد التي ذكرت بعدها، وأعقبت بأنه كان من المفسدين.

المفسدة الثانية: أنه جعل أهل المملكة شيعًا وفرقهم أقسامًا، فجعل منهم شيعًا مقربين منه، وجعل بعضهم بضد ذلك، وذلك فساد في الأمة؛ **لأنه يثير بين الأمة التحاسد والتباغض والتقاطع، ويجعل بعضهم يتربص الدوائر ببعض**؛ فتكون الفِرَقُ المحظوظة عنده متطاولةً على الفرق الأخرى، وتكدح كل فرقة لتزحزح هؤلاء المحظوظين عن حظوظهم بإلقاء النميمة والوشايات الكاذبة؛ حتى يحل محل هؤلاء غيرهم. وشأن الملك الصالح أن يجعل الرعية كلها بمنزلة واحدة منه، بمنزلة الأبناء من الأب، يحب لهم الخير ويقومهم بالعدل واللين، لا ميزة لفرقة على فرقة، ويكون اقتراب أفراد الأمة منه بمقدار المزايا النفسية والعقلية التي هم فيها.

المفسدة الثالثة: أنه يستضعف طائفة من أهل مملكته فيجعلها محقرة مهضومة الجانب لا مساواة بينها وبين أي فرق أخرى، ولا عدل في معاملتها في حين أن لها الحق في الأرض كما لغيرها. والمراد بهذه الطائفة بنو إسرائيل كما ذكرنا، وأشار بقوله: ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً ﴾ إلى أن الاستضعاف على الطائفة من أولها إلى آخرها ليس على شخص منها أو بعض أشخاص، وإنما على الطائفة كافة.

المفسدة الرابعة: أنه يذبح أبناءهم يعني: يأمر بذبحهم، والأبناء المراد بهم الذكور من الأطفال، وقصده من ذلك ألا تكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم؛ حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.

والمفسدة الخامسة: أنه يستحي النساء، يعني: يستبقي حياة الإناث من الأطفال فأطلق عليهن اسم النساء باعتبار المآل، ويستحيهن ليصرن نساء فتصلحن لما تصلح له النساء بغير رجال، لأن يصرن بغايا، لأنه يقتل ذكورهم ويستبقي النساء، وهؤلاء النساء ليسوا أزواجًا لهؤلاء القبط من أهل فرعون؛ فيبقى النساء بغايا لا رجال لهن، مما يوقع في هذه المفاسد التي يذكر القرآن الكريم؛ وإذ كان احتقارهن بصد قومه عن التزوج بهن فلن يبقى لهن حظ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة.

ثالثًا: الله يريد المنة على المستضعفين

بعد هذه المقدمة وهذه المفاسد التي ذكرت لتكون عبرة للمؤمنين، جاء قوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝ ﴾ [القصص: ٥-٦] وهو محط الكلام الذي نريد أن نشير إلى معانيه، في كون أن الله ﷻ هو المنان، وكيف رتب الله تعالى لفرعون أن يتربى موسى في داره وبين قومه ورجاله ونسائه؛ ليكون سبب هلاك فرعون، وسبب زوال هذه الأمة من أمم القبط ، وفي نفس الوقت ما هي الشروط التي يمن الله تعالى بها ، أو تكون سبب منة الله تعالى على المؤمنين؛ حتى يأخذوا منها العبرة والعظة التي تكون سببًا لمنة الله عليهم.

قوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، عطفت فيه جملة: ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ على جملة ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٤] فواو العطف في قوله "ونريد" معناها أنه في نفس الوقت الذي علا فيه فرعون وتكبر قد انقضت **إرادة الله تعالى** ، بأن يمن على الذين استضعفوا، وأن يذهب هؤلاء المتكبرون، ويبيدهم ﷻ ويمحو ذلك كله من الأرض: الكبر والطغيان واستحياء النساء وقتل الأطفال، ثم يُمَكِّنُ ﷻ لبني إسرائيل ويجعلهم أئمة، ويجعلهم الوارثين.

والعطف كذلك بيان لنبأ موسى وفرعون الذي قال المولى ﷻ: ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [القصص: ٣] ، فما هو هذا النبأ؟ فرعون يستضعف هذه الطائفة، ويذبح أبناءها، ويستحي نساءها. ما المطلوب حينئذ؟ المطلوب أن يفهم المؤمنون العبرة منها، أنه **قد انقضت هذه الإرادة، بالمنة على هؤلاء المستضعفين**، فكانت هذه الإرادة من تمام نبأ موسى وفرعون، وهو موقع عبرة عظيمة من عِبَر هذه القصة وهي إتمام نبأ موسى وفرعون بالحق.

وجيء بصيغة المضارع ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ مع أن إرادة الله تعالى قد انقضت من قبل، وأن الله تعالى قد قضى هذا الأمر فيما قضاه في خلقه، **لاستحضار ذلك الوقت كأنه في الحال**؛ أي: إن فرعون يطغى عليهم، والله يريد في ذلك الوقت الذي يطغى عليهم فيه إبطال هذا الطغيان بالمن على المؤمنين.

وهذا هو حال المؤمنين في كل زمان وصل بهم الاستضعاف إلى هذه الصورة التي ذكر القرآن الكريم، ليعلم المؤمن هذه الحالة الحاضرة، فرعون يستضعفهم والله يريد أن يمن

عليهم بإبطال عمله، وجعلهم أمة عظيمة؛ ولذلك جاز أن تكون جملة ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ باعتبار أن تلك الإرادة مقارنةٌ لوقت استضعاف فرعون إياهم، فالمعنى إذن على الاحتمالين.

والمن هو الإنعام، والذين استضعفوا في هذه الآية هم الطائفة الذين استضعفهم فرعون، والأرض هي نفس الأرض في قوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥].

ونحن نشرح الآية كلمة كلمة؛ حتى نفهم تركيب القرآن البديع، وما فيه من بلاغة تعطينا معاني جديدة، هذه المعاني ينبغي أن يتعلمها المؤمنون؛ لتكون سبب محبتهم لكلام الله تعالى وإقبالهم عليه: تدبرًا وفهمًا وتعلمًا.

وقالت الآية: ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ ﴾ ولم تقل: "عليهم"، فالقرآن أظهر في محل الإضمار مع ارتباط الآيات ببعضها، فلماذا؟!

يقول ابن عاشور[1]: «ونكتة إظهار الذين استضعفوا دون إيراد الضمير للطائفة، للتنبيه على ما في الصلة من التعليل، لأن إيراد الضمير على ما في الصلة فيه تعليل لسبب رحمة عباده ونصر المستضعفين» أي: ليبين لك أيها المستمع **أن سبب المن وسبب الرحمة النازلة على عباده ﷻ وسبب النصر إنما هو بسبب استضعافهم**، فالعلة التي نزل الله تعالى بها رحمته عليهم ونصر المستضعفين المظلومين أنهم وصلوا إلى الاستضعاف ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ

١ - التحرير والتنوير، تفسير الجزء العشرين، صـ٦٩-٧٠.

حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ فكان الناصر لهم حينئذ هو الله تعالى، لما وصل بهم الحال إلى ذلك الأمر إلى تلك الدرجة.

وهي المسألة المهمة التي يتعلمها المؤمن، أن وصول المؤمنين المتقين لهذه الدرجة من الاستضعاف لا يعني أنهم لن ينتصروا، لا! بل على العكس؛ الله تعالى لما قال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا ﴾ بَيَّنَ لك أن الاستضعاف سبب لرحمة الله تعالى وتنزل نصره؛ **حتى لا تيأس من كونك مستضعفًا إلى هذه الدرجة**؛ فإذا ازداد الاستضعاف فوصل إلى نهايته فاعلم أن معه نصر الله تعالى وتمكينه لهؤلاء المستضعفين.

فائدة: هؤلاء المستضعفون من المؤمنين اليوم لا شك قد وصلوا إلى درجة منحطة جدًّا في الاستضعاف والامتهان، وعدم مبالاة الكفرة بهم، وأنهم يسومونهم سوء العذاب، ويفعلون بهم هذه الأيام ما لا يتخيله أحد، ولا يتخيل أحد أن يكون لهذه الأحوال السيئة الواقعة حلاً قريبًا، ولا يتخيل لها انفراجًا يجعل المؤمنين المتقين يعود إليهم أملهم، أو كما ذكر الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤] فالمرء لا يرى شفاء صدره قريبًا في مثل الأحوال الواقعة اليوم؛ لذلك تأتي هذه الآيات الكريمات لتفتح باب الأمل للمؤمنين، ولكنه أمل مرتبط بأسبابه.

فالمؤمنون يتمنون أن يروا هذا اليوم الأسود على أعدائهم الذي يذلّ الله تعالى فيه الكفر، ويرفع أهل الإيمان ويرون فيه الكفرة أذلاء، ، قد أنزل الله بهم بأسه، وأنزل عليهم عذابه وشدته ﷻ، وسامهم سبحانه وتعالى سوء العذاب، وخسف بهم، وأهلكهم

ودمَّرهم وأغرقهم، أو أوقع بهم شيئًا من هذه النوازل التي ينزلها الرب ﷻ بهؤلاء المشركين المتجبرين الطاغين، ولكنهم إنما يحلمون بذلك، أحلام نوم، أو أحلام يقظة، ولم يقدموا لها أسبابها، ولم يأخذوا في خطوات واضحة تكون سببًا لأن يمن الله تعالى عليهم بذلك، بل تلك أمانيهم أن يروا ذلك !

لذللك كانت أهمية هذه الآيات، التي تبين أن الاستضعاف ليس وحده هو السبيل لأن يرفع الله تعالى عذابه عن المؤمنين، أو أن ينزل كذلك بأسه بالكافرين، وإنما **لا بد أن يكون هؤلاء الذين استُضعِفوا في الأرض أهلاً لأن يجعلهم الله تعالى أئمة**، كما قال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ [القصص: ٥] ولا شك أنه لن يجعلهم أئمة من لا شيء، وأن يمكن لهم بدون أي أسباب قدموها لهذا التمكين، أو بدون بذل وجهد قد فعلوه في إمكانهم وفي وسعهم حتى يبدل الله تعالى تلك الأحوال؛ لذلك فهذه الآية في محل العبرة لأهل الإيمان كيف يبذلون جهدهم ووسعهم حال استضعافهم؛ ليكون هذا الجهد وهذا الوسع الذي بذلوه سببًا أن يمن الله تعالى عليهم، وأن يجعلهم أئمة، وأن يجعلهم الوارثين، وأن يمكن لهم في الأرض، وأن يأخذ أعداءهم كما بين ﷻ في قصة بني إسرائيل.

وتبين الآيات كذلك أن بني إسرائيل وصلوا إلى درجة صعبة من الاستضعاف وانتهاك الأعراض التي وصفها القرآن الكريم ، وفي ذلك العبرة لأهل الإيمان أنه **مهما بلغ حال الاستضعاف بالمؤمنين فإن ذلك لا يكون سببًا أبدًا في أن ييأسوا ، أو أن يقنطوا من رحمة الله تعالى**، بل كلما بلغ الاستضعاف مبلغه؛ فإنه كما قال: ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾

[الشرح: ٦] فالعسر نفسه معه اليسر، فليس بعد العسر يسر، كما ذكر الله، وإنما معه يأتي في نفس الوقت وفي نفس الحال، فكأن هذا العسر مبطنٌ باليسر في داخله، وأنه يوشك أن ينفرج هذا العسر بذلك اليسر الذي أبطنه الله تعالى فيه.

وأهمية ذلك لأهل الإيمان، ألا يكون ما هم فيه سببًا لقعودهم، وسببًا لتثبيطهم، وسببًا لضعف همتهم عن القيام بأوامر الله تعالى، لأنه عندما ييأس المرء من صلاح الحال، وأنه لن تقوم للمسلمين قائمة بعد ذلك، وأن الله تعالى قد أغلق باب الاستجابة في وجه المؤمنين الذي لا يستحقون هذه الاستجابة، إذا بالله تعالى يفتح أبواب الرحمة، وإذا بالله تبارك وتعالى يرفع بأسه عن المؤمنين، وينزل بأسه بالكافرين، وإذا به ﷻ يفرّج وينفّس عن المؤمنين، ويُهلك أعداءه أعداء الدين؛ لأن ذلك إنما هو مختص به نفسه ﷻ، أن ينصر دينه، وأن يرفع رايته، كما قال: ﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ [محمد: ٧].

فذلك يدعوهم إلى أن يعلموا قرب التغيير، كما ذكر النبي ﷺ أن الله تعالى ينظر إلى عباده قنطين، وهو يضحك ﷻ من قنوطهم وقرب غِيَره[١]، يعني: يضحك إلى أنهم

---

١ - الحديث أخرجه أحمد (١١/٤، رقم ١٦٢٣٢)، وابن ماجه (٦٤/١، رقم ١٨١) والطبراني (٢٠٧/١٩، رقم ٤٦٩)، والدارقطني في الصفات (ص ٢٧، رقم ٣٠). وأخرجه أيضًا: الطيالسي (ص ١٤٧، رقم ١٠٩٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٤٤/١، رقم ٥٥٤). قال البوصيري (١ ص ٢٦): هذا إسناد فيه مقال. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف، ولفظه: (عَنْ أَبِي رَزِينٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عَبْدِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَيَضْحَكُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: نَعَمْ؟ قَالَ: لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا).

وصلوا إلى درجة من القنوط، لا يظنون معها أن يغير الله تعالى الحال، وإذا به يضحك لقرب غِيَره، يعني: لقرب تغير هذه الحال، فقد أوشكت أن تتغير؛ فبينما هم أذلاء قنطين يائسين مما هم فيه، إذا بالله يضحك؛ لأن هذا الذل وذلك القنوط وذلك اليأس إنما هو قبيل الفرج بقليل، و يوشك الفرج أن ينزل.

ومن ثَمَّ كانت هذه **العبرة الثانية** التي يتعلمها المؤمنون؛ لتكون هذه العبرة سببًا لأن يستمسكوا بدين الله تعالى، وأن يبذلوا جهدهم ووسعهم؛ ليحققوا هذه الحال من الله تعالى، وليرفعوا عن أنفسهم ذلك اليأس وذلك القنوط الذي حل بهم، وكذلك هذا الضعف في قلوبهم وأبدانهم عن السير إلى الله تعالى، بل ذلك يكون سبب قوتهم؛ لأنه عندما تقترب هذه المرحلة من نصر الله تعالى؛ فإن المؤمنين عليهم أن يكونوا أكثر عملاً وأكثر بذلاً، ومثال ذلك في رمضان، فإنه عندما يوشك أن تنتهي أيامه، وتقترب أيام المغفرة وتوزيع الجوائز من الله تعالى على الصادقين؛ إذا بالنبي ﷺ يكون أشد اجتهادًا وتشميرًا، وأشد بذلاً لوسعه وجهده [1]، ليكون ذلك سبب تحصيل أعظم جائزة يعطيها المولى ﷻ في مثل تلك الأيام.

وعليه فإن المؤمنين عندما يصلون إلى الدرجة العظمى في الاستضعاف؛ فإنهم ينبغي أن يزيدوا أعمالهم ووسعهم وجهدهم؛ ويظنوا أن نصر الله تعالى قريب، كما ذكر المولى ﷻ: ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾ [البقرة:

---

١ - الحديث أخرجه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤) ولفظه: (عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ) .

٢١٤] فعندما وصل بهم الحال أن زُلزلوا وكما ذكر الله ﷻ: ﴿ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾ [البقرة: ٢١٤] دل ذلك على ﴿ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤].

رابعًا: عظيم قدر منة الله تعالى

فقد خصت الآية بالذكر من المن أربعة أشياء، منَّ الله تعالى بهم على المستضعفين في مقابل ما كان يفعله فرعون، ماهي هذه الأشياء؟

الأولى: جعلهم أئمة.

الثانية: جعلهم الوارثين.

الثالثة: مَكَّنَ لهم في الأرض.

الرابعة: أن كان زوال ملك فرعون على أيديهم.

هذه الأربعة عطف الله تعالى فيها العام على الخاص، وهي المسألة الجميلة يجب أن يفهمها المؤمن، ليتبين ذلك المن الذي يمن الله تعالى به على عباده، فلما علا فرعون في الأرض وتكبر عليهم وطغى، واستضعف هؤلاء، وقتل أولادهم، واستحيا نساءهم، وكان من المفسدين فسادًا بلغ في الفساد قمته وأعلاه ، إذا بمنة الله تعالى تكون على عكس ذلك كله، **التكبر والطغيان** مصيره **الغرق**، فبعد أن كان متكبرًا إذا به يدفن في قاع البحر، وبعد أن كان **يقتل أبناءهم** جعلهم ﷺ **أئمة**، وبعد أن كان **يستضعفهم حتى يستمر ملكه**، **أزال الله تعالى ملكه على أيديهم**، على يدي هذا الطفل الذي قد تربى في حجر فرعون نفسه.

واسمع تفصيلاً لهذه المعاني ليتعلم المؤمنون كيف يسلكون سبيل الأئمة في هذا الدمار والضنك الذي يحيون فيه الآن، قال ابن عاشور[1]: فأما جعلهم أئمة؛ فذلك بأن أخرجهم ﷻ من ذل العبودية، وجعلهم أمة حرة مالكة أمر نفسها، لها شريعة عادلة، ولها قانون معاملاتها، ولها قوة تدفع بها أعداءها، ولها مملكة خالصة لها وحضارة كاملة تفوق حضارة جيرتها؛ بحيث تصير هذه الأمة وهؤلاء الأئمة قدوة للأمم في شئون الكمال وطلب الهناء؛ فهذا معنى جعلهم أئمة أي: يقتدي بهم غيرهم، ويدعون الناس إلى الخير، وناهيك بما بلغه ملك بني إسرائيل في عهد سليمان بن داود -عليهما السلام - فقد بلغ ملكهم مبلغًا عظيمًا كما ذكر القرآن الكريم .

فلن يصل المؤمنون المتقون اليوم إلى أن يكونوا أئمة إلا بأن يسلكوا نفس الطريق الذي جعل الله ﷻ به بني إسرائيل أئمة؛ وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] فجعلهم أئمة ﴿ لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ يعني صاروا واثقين فيها، وهو طريق المؤمنين الآن، أن يصلوا إلى هذه الحال من حسن التوكل واليقين في الله والثقة فيما عنده، وأن يرتكنوا إليه ﷻ، ويحسنوا التوكل عليه، مع ذلك الصبر الذي يحملهم على مراعاة أوامر الشرع، والقيام بها، **وتحمل مرارة ما يعود عليهم بسبب القيام بها.**

وأهل الإيمان قاعدون، متكاسلون عن أن يرفعوا عن أنفسهم وعن المؤمنين هذا الاستضعاف برحمة الله تعالى وتنزل قوته ومدده على المستضعفين المظلومين، وفي نفس

---

١ - التحرير والتنوير، تفسير الجزء العشرين، صـ٦٩-٧٠.

الوقت هم قاعدون عن أن يكونوا أئمة يجعلهم الله تعالى بمنه وكرمه يُقتَدى بهم، وأن يكونوا سبيل الخير لغيرهم.

وأما جعلهم الوارثين، **فهو أن يعطيهم الله تعالى ديار قوم آخرين، وأن يحكمهم فيهم**. وكان يمكن أن يقال: "ونجعلهم وارثين، ولكن جاءت الآية بالتعريف ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ وهو تعريف الجنس المفيد أنهم أهل الإرث الخاص المعينين لشيء ما، وهو إرث السلطة في الأرض بعدما كان هذا الإرث قبلهم من أهل السلطان، فإن الله تعالى أورثهم هذه الأراضي في الأرض المقدسة وما حولها، وأحلهم محل الكنعانيين والآموريين والآشوريين والآراميين على ما كانوا فيه من العظمة؛ حتى قيل عنهم: الجبابرة. فإنه لما قال لهم موسى ادخلوا الأرض المقدسة، قالوا: ﴿ إن فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ [المائدة: ٢٢] وإنهم لن يدخلوها ما داموا فيها، ومع ذلك أورثهم الله ﷻ أرض الجبابرة هؤلاء وبقوا فيها وعمروها وورثوها من بعد أهلها ذلك الإرث الخاص الذي عرفه في قوله: ﴿ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ كما شاء الله تبارك وتعالى لهؤلاء المستضعفين.

قوله: ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يعني: لم يجعلهم وارثين فقط بحيث إنهم يرثون هذه الأرض، ثم يعود أهلها فينقلبون عليهم، ويأخذونها منهم مرة أخرى، لا، وإنما مكن لهم ﷻ **وثبت سلطانهم فيما ملكوه من أرض الشام، وقواهم بين تلك الأمم ﷻ**.

فائدة: وهي في تدبير الملك الحق سبحانه في هذه الحال التي زال بها ملك فرعون، وذكرتها الآيات بعد ذلك، قال تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص: ٨]، فعندما

أخبر الكهان فرعون أن زوال ملكه سيكون على يد طفل من بني إسرائيل إذا به يقتل كل الأطفال، فقال له رجال ملئه وحاشيته: إذا قتلتهم كل سنة سيأتي زمان ليس هناك رجال يقومون بالسخرة؛ لأنه قد سخر هذه الطوائف ليكونوا بناءين وخداماً وغير ذلك من المهن، والمجالات التي استُعمل فيها بني إسرائيل، فإذا قتل كل أبنائهم فمن أين يأتي برجال يقومون بهذه الأعمال؟ فاضطر لقتل الأطفال عامًا وتركهم عامًا، ففي العام الذي يترك فيه الأطفال ولد هارون، في العام الذي يقتل فيه الأطفال ولد موسى عليهما السلام.

وكان موسى على هذه الحال الذي قص الله تعالى، من أنه كان هو العدو والحزن الذي تربى في حجر فرعون؛ ليكون زوال ملكه على يديه، فبعد أن كان فرعون سيزيل بني إسرائيل من أولهم إلى آخرهم، ويستأصل شأفتهم، فزال هو وجنده.

لذلك يقول -العلماء في تفسير هذه الآيات-: إن فرعون كان من أشد الناس غباءً وحمقًا؛ لأنه لما أخبره الكهان أن زوال ملكه سيكون على يد طفل من الطائفة الإسرائيلية؛ كان يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم ؛ ليمتنع ذلك! وهذا الغباء لأن هذا الخبر الذي أخبروه به إما أن يكون صادقًا أو كاذبًا، فإن كان صادقًا فلا محالة سيزول ملك فرعون ولو قتل أطفال الدنيا كلها ، وإن كان كاذبًا ، فلماذا يقتل الأطفال؟

والمؤمنون ينبغي ألا يكونوا على هذه الحال السيئة، ولا أن يفكروا بهذه الطريقة الحمقاء التي لا ينبغي أن يفكروا بها ! بأنه لو كان كذا كان كذا، وسيسعى في كذا ليحصل كذا، وسيرتب كذا لينبني عليه كذا، وإذا بكل "كذا" يصير هباء، ويأتي مراد الله

تعالى من حيث احتاط واحترز، ويأتي مراد الله تعالى من حيث لم يتوقع، بل ويأتي مراد الله تعالى من حيث حذر هو، كما قالت الآية: ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٦].

وكان يمكن أن تقول الآية: ونري فرعون ما كان يحذر من أن واحدًا منهم سيكون زوال ملك فرعون على يديه، ولكن الله تعالى أظهر ذلك كله لفرعون وهامان وجنودهما، وبين لهم أن الحذر لم ينفعهم، وأن ملكهم قد زال من من هذا الطريق الذي كانوا يحذرون ؛ **ليعلم المؤمن قوة الله تعالى وقدرته وترتيبه في الخلق**، وليعلم أنه إن ظن أن هذا الطريق لن يوصله إلى شيء، إذا به الطريق الموصل لا سواه، وأن الحذر من أن هذا الطريق هو الذي سيؤدي به، إذا بهذا الطريق الذي كان يحذر هو سبب الفساد وسبب الهلاك؛ فيتعلم المرء حينئذ ألا يقترح على الله تبارك وتعالى تغييرًا يريده هو بعقله القاصر وفهمه القليل، وإنما يترك لله تعالى إرادته التي تسير بها أمور كونه، ويتربى بها خلقه ﷻ، وتنفذ بها مشيئته، ويقع بها قضاؤه ﷻ كما وقع في هذه القصة؛ ليتبين للمؤمنين أنه مهما علا المرء ومهما طغى فإنه إن أراد الله له ذلك فلا مفر له.

والسائل يسأل: هل فرعون الذي قتل الأولاد هو الذي أهلكه الله؟ لا، فرعون الأول غير فرعون الثاني[1]، كما جاء في سورة الشعراء.

---

١ – بعض المستشرقين من النصارى يورد الشبهة في هذه القضية، بالتشكيك في أن فرعون في دولة القبط – والقبط اسم سكان مصر القديمة وهكذا كان اسمهم فلا يعني هذا كونهم نصارى– لم يحدث له الغرق. ففرعون المقصود في الآية: ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٦] هو ملك

وهامان -قال المفسرون - هو وزير فرعون، وأحسب أن هامان ليس باسم علم، ولكنه لقب مثل: فرعون وكسرى وقيصر ونجاشي وغيرها، والظاهر أن هامان لقب لوزير الملك في مصر في ذلك العصر[1].

مصر منفتاح الثالث، والذي حكم مصر بعد رعمسيس الثاني الذي قتل أولادهم وبدأ هذه السنة السيئة، والذي ولد موسى -عليه السلام- في زمانه، وهو الذي كان يحذر ظهور رجل من بني إسرائيل يكون له شأن.

١ - بعض المستشرقين من النصارى يورد الشبهة في هذه القضية أيضًا، بزعمهم أنه لم يكن لفرعون وزير اسمه هامان، واتخذوا هذا الظن مطعنًا في الآية. وهذا اشتباه فإن الأعلام لا تنحصر، وهامان كان لقب الوزير، وهو لقب كفرعون نفسه، فلم يكن من أسماء الأعلام كالأسماء التي نتسمى بها الآن. وهو يشبه طعن بعض المستشرقين من النصارى كذلك في قوله تعالى في شأن مريم حين حكى قولها: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٨] قالوا: كيف تكون مريم أخت هارون، وهارون قد مات منذ زمن طويل؛ حيث هارون هو أخو موسى، فكيف تكون أخت هارون؟ وكأنه قد أغلق الباب على هارون -عليه السلام- ولم يبق بعده من اسمه هارون! فليس بممتنع أن يكون لمريم أخ اسمه هارون، لا عقلاً ولا واقعًا. أما هارون المذكور في هذه الآية فهو عابد أو كاهن من كهان بني إسرائيل صالحًا تقيًا، و تشبيهًا لها بأنها في ديانتها وفي عفتها وصيانتها كهارون، لأنه لما يقال لأحد: يا أخا فلان، يعني: أنت مثل فلان، ويكون المعنى أن الأخوة هنا ليست أخوة النسب، وإنما في كونها مثله في الدين والصيانة والعفة والكهانة والتعبد لله تعالى والانفراد بالله والخلوة له ﷺ.

خامسًا: قدرة الله تعالى في إهلاك فرعون وقومه

وفي النهاية نشير سريعًا للآيات التي بينت قدرة الله تعالى في إهلاك فرعون وقومه، وكذلك في إنجاء موسى ومن معه، وهي آيات سورة الشعراء: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝ ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢] قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: البحر أمامنا، وفرعون وراءنا وسنرجع مرة أخرى للذل والاستعباد وإلى أسوأ مما كنا فيه؛ ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ فماذا حدث بعد ذلك؟ ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣] وهذه من أعظم آيات الله تعالى في نجاة أوليائه!، ماذا يعني انفلاق البحر؟ يعني أن الماء وقف عالياً كأنه جبل! هل يستطيع أحد أن يوقف الماء في الهواء؟ اثنا عشر جبلاً عظيماً، فصار الماء جبالاً من المياه بينها وبين كل جبل طريق يابس يمر فيه القوم.

ثم ماذا حدث؟ ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٦]، بنو إسرائيل ظلوا واقفين لا يجرؤن على المرور، حتى عبر سيدنا موسى، فعبروا وراءه، ونزل فرعون وقومه البحر فأمر الله تعالى بإطباق البحر عليهم فكأن لم يكونوا!

والناظر في الآيات يلاحظ معني من أعظم المعاني في قوله: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٥-٦٦] فبني إسرائيل من أولهم إلى آخرهم؛ جنودهم ونسائهم وأولادهم وأطفالهم ومركوباتهم وما حملوا معهم من كل

شيء، **أنجاهم الله تبارك وتعالى أجمعين**، فلم يغرق منهم أحد أو يسقط لهم شيء ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٥-٦٧] ، أما فرعون وقومه فكما قال ربنا، فقد نزلوا كلهم البحر، **ولم ينج منهم أحد**.

وفي هذا عبرة عظيمة لا يستطيعها البشر، ولا الدنيا بأسرها! فالبشر لا بد معرضون للتقصير ولعدم دقة الحسابات ولعدم مراعاة بعض الأمور، لأنه ليس هناك في الدنيا أمور تحسب مائة في المائة، ولكن ترتيب الرب ﷻ ، ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ﴾ [الشعراء: ٦٤-٦٧] وأزلفنا، أي: قربنا، فقرب فرعون وقومه وجنوده فأغرقهم أجمعين، وأنجى موسى ومن معه أجمعين، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ﴾ وأي آية!



الآية الخامسة:

﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾

- ○ علاقة الآية بالسياق القرآني الواردة فيه
- ○ منة الله تعالى على الذرية بصلاح آبائهم
- ○ الدعاء بأسماء الله الحسنى من أسباب منَّة الله النجاة من عذاب الآخرة



أولًا: علاقة الآية بالسياق القرآني الواردة فيه

بعد أن أشرنا في شرح الآيات السابقة إلى ما يتعلق بالمنن التي من الله تعالى بها على خلقه في الدنيا، نتكلم في هذه الآية عن منة الله تعالى عليهم في الآخرة. وهي في قوله ﷻ: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨ ﴾ [الطور:٢٥- ٢٨] ، لنفهم معنى من معاني المن من الله تعالى على المؤمنين، كيف منَّ الله تعالى عليهم ووقاهم عذاب السموم؟ كيف منَّ عليهم وما أنقصهم من عملهم من شيء؟ وكيف منَّ عليهم وألحق ذريتهم بهم ولم يرهنهم بأعمالهم؟ وكيف منَّ عليهم وأتم عليهم نعيمهم ولذتهم وسرورهم؟ وكيف منَّ عليهم ﷻ بتمام أُنسهم بأولادهم؟ والمنن التي لا حصر لها في هذه الآية.

والملاحظ هنا يجد أن آية ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾ جاءت معترضة لسياق الآيات، إذ السياق بدأ بوصف نعيم أهل الجنة من المتقين: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝١٨ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ ثم جاءت ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾ معترضة؛ ثم استكمل السياق الأول في وصف النعيم بعدها: ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور : ٢٢-٢٣]...إلى آخر الآيات.

لذلك نبين أولًا المعاني في هذه الآيات قبل استكمال آية المنة. فالاعتراض في هذه الآية **يبين جزءاً من نعيم المؤمنين في الجنة**، بإلحاق ذريتهم بهم، لأنه من كمال النعيم الذي يتنعم به المؤمنون في الآخرة أن تكون ذريتهم معهم؛ لا أن يكونوا هم في النعيم وأولادهم وذريتهم معذبين في الجحيم حتى يخرجوا إلى الجنة، أو أنهم في درجات أدنى من آبائهم لا يصلون إليهم، فكأن الله تعالى كمّل لهم نعيمهم وسرورهم ولذتهم بأن جمعهم بذريتهم، فاكتمل نعيمهم وسرورهم وأنسهم باجتماعهم بأولادهم وذريتهم.

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾ جاء فيه اللفظ: ﴿ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾ فهذه الذرية التي اتبعت هؤلاء ولحقت بهم لحقت بهم لكونهم مؤمنين مع أن الكلام في بداية الآيات كان للمتقين: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾ ﴾ [الطور : ١٧].

وهذه منّة الله تعالى، فإذا تحققت ذريتهم بمجرد الإيمان، يمن الله تعالى على هذه الذرية التي لم تبلغ في إيمانها وعملها الصالح مبلغ آبائها، بأن يُلْحِقهم بآبائهم، منة من الله تعالى على هؤلاء المتقين؛ ثم هل يُنْقِصُ ذلك الآباءَ شيئاً من أعمالهم ليأخذها من أُلْحِق بهم من ذرياتهم؟ أجابت الآية: لا! لن ننقصهم شيئاً، وذلك فضل الله تعالى الواسع عليهم وعلى ذرياتهم، إكمالاً لنعيمهم، وإتماماً لسعادتهم وأنسهم بجوار الله تعالى والنبيين.

وتأتي تكملة الكلام القرآني الفريد: ﴿ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾ فيطرأ السؤال: لما كان كل مرهون بعمله، فما المنة في أن هؤلاء الذرية يلتحقون بالآباء إذا كانوا

قد رهنوا بأعمالهم؟ أُجيبَ: إن هذا فيه كنايتين: إحداهما أن أهل الكفر مقرونون بجزاء أعمالهم، وثانيتهما أن ذريات المؤمنين الذي ألحقوا بآبائهم في النعيم ألحقوا في الجنة كرامة لآبائهم، **بشرط الإيمان،** ﴿ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ﴾ فهذه الذرية لن تلحق بالآباء إلا أن تكون ذرية مؤمنة، فالإيمان هو الأصل في أن تلحق بهم ذريتهم ، **ولكن لولا تلك الكرامة لكانوا مرهونين بعملهم كما رهن غيرهم،** لأن أعمالهم لا تصل إلى درجات آبائهم فلا يلحقون بهم .

ولكن كرامة لآبائهم وإتمامًا لنعيم آبائهم، لم يرتهنوا بأعمالهم الناقصة التي لم تبلغهم درجة آبائهم ، وإنما رفعت أعمالهم إلى أعمال آبائهم في الدرجة حتى حصلوا بذلك درجة آبائهم.

ثانيًا: منة الله تعالى على الذرية بصلاح آبائهم

وهي في قوله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ، وأول ما يصادفنا كلمة ﴿ وَأَقْبَلَ ﴾ والواو هنا للعطف، فالكلمة معطوفة على قوله تعالى: ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور : ٢٣] يعني: فيما هم فيه من فرح الجنة، ومن نعيم وسرور ولذة يتحدثون ويتناقشون ويتسامرون، في هذه المجالس من مجالس النعيم لأهل الجنة.

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ من الذين يتساءلون؟ الآباء وذرياتهم، فضمير "بعضهم" عائد إلى المتقين وإلى ذرياتهم كما قال تعالى في الآية السابقة : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

فهؤلاء الآباء والذرية، وهم يتنازعون هذا الكأس، أقبلوا يتساءلون، إتمامًا للأنس، وإظهارًا لفضل الرب، وتبيينًا لمنة الله تعالى العظمى على الآباء والذرية في نفس الوقت.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ قال ابن عاشور(١): والإشفاق توقع المكروه، وهو ضد الرجاء، وهذا التوقع متفاوت عند المتسائلين بحسب التقصير في أداء حق التكليف، أو من العصيان، ولذلك فهذا الإشفاق أقوى في جانب ذرية المؤمنين؛

١ - التحرير والتنوير، تفسير الجزء السابع والعشرين، صـ٥٦-٥٨، بتوضيح وتصريف.

بسبب سوء أعمالهم، وزيادة عصيانهم، كانوا أكثر خوفا من أن يحل عليهم مكروه الرب في الآخرة أكثر من الآباء.

ويجوز أن تكون المقالة وهي قوله: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴾، صادرة من الذين آمنوا من المتقين، يخاطبون ذرياتهم الذين ألحقوا بهم، ولم يكونوا -أي هؤلاء الآباء المتقون- يحسبون أنه ستلحق بهم ذريتهم المقصرون المفرطون.

كانوا إذن خائفين وجلين، **ولم يكونوا مشفقين فقط على أبنائهم؛ وإنما كانوا مشفقين على أنفسهم كذلك**، وعلى أعمالهم، وعلى علاقتهم بالله تعالى، وقيامهم بمسئوليتهم بحقوق التكليف الشرعي، بما أمر الله تعالى.

لذلك قال[1]: وهذا **الإشفاق في الدنيا على حسب المنة في الآخرة**؛ فالإشفاق درجات متفاوتة، فليس كل المتقين في الحياة الدنيا مشفقين بنفس الدرجة، خائفين متوقعين للمكروه، مترقبين أعمال آخرتهم، حذرين لها. وهي أول ما يتعلمه المرء حتى ينتظر منة الله تعالى المنان، الإشفاق في الدنيا، والخوف على نفسه، وأهله، أن يكون متحملاً لمسئوليات هذا الدين؛ لأن الإشفاق يكون على حسب القيام بتكاليف الشرع. فمن كان أكثر إشفاقا كان أعلى درجة، ومن كان في الدنيا أقل إشفاقا وخوفا كان في الآخرة كذلك أخفض درجة عند الله تعالى، وهذه مسألة لا كلام عليها، كما قال: ﴿ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ ﴾ [آل عمران : ١٦٣]. وكذلك من خاف في الدنيا أمن يوم القيامة، ومن أمن في

١ - أي: ابن عاشور رحمه الله، انظر المصدر السابق.

الدنيا خاف يوم القيامة. فإن كان خوفه كبيراً كان أمنه كبيراً، وإن كان خوفه ضعيفاً كان خوفه في القيامة كبيراً، وهكذا.

قوله: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور : ٢٧] فهذا الإشفاق سبب من أسباب منة الله تعالى؛ عندما يكون المؤمن مشفقاً خائفاً يتوقع المكروه، **ولا يتوقع أن عمله يمكن أن يكون سببًا لنجاته**، إذ لا يكون سبب الفوز والنجاة **إلا الخوف والحذر والرجاء الذي تتنزل به رحمة الله تعالى**، فهو دائم توقع المكروه بسبب أعماله، وأقواله، وتصرفاته؛ حتى يكون أشد احتراساً منها لما يقع بسببها في معصية الرب ﷻ.

﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ بالعفو، فأذهب عنا الحزن، ووقانا ﷻ عذاب النار؛ لأنه لما كان عذاب الذرية يحزن آباءهم جعلت وقاية الذرية من العذاب وقاية لآبائهم، لذلك قالوا: ﴿ وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾، يعني وقانا وإياكم هذا العذاب؛ لأنكم لو كنتم تتعذبون، كنا نحن في الحزن والألم والضيق لتعذيبكم.

وهذا القول من الآباء: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ إغراق في الشكر عنهم وعن ذريتهم، لأن العفو عن الذرية كأنه عفو عن الآباء، ومعنى الشكر أظهر في جانب الذرية، لأن الله تعالى قد أوصلهم إلى هذه الدرجة مع قلة الأعمال، والوقوع في العصيان، وبالتالي كانت منة الله تعالى عليهم عظيمة، فقالوا شاكرين شكرا كبيرا لله تعالى: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا ﴾ جميعا نحن وأنتم ﴿ عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾.

والسموم هي الريح التي تهب من جهة حارة جدًّا، يعلمها العرب، وهذه الريح أيامها كان من يستنشقها يموت، وكانت إذا جاءت فإنها تأتي بالدمار والهلاك، وأطلقت هنا على سبيل تقريب المعنى لهؤلاء في الآخرة.

ثالثًا: الدعاء بأسماء الله الحسنى من أسباب منّة الله تعالى النجاة من عذاب الآخرة

الآية التالية، هي قوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ [الطور : ٢٨] ، وهي الصفة الجميلة التالية التي يمن الله تعالى بها على عباده، فهم لا يتخلفون عن دعائه، والابتهال له ﷻ، مع حسن الأدب في هذا الدعاء والتضرع، حتى يستجيب لهم ﷻ ويمن عليهم بأن يعطيهم ما يريدون منه وألا يخذلهم فيما دعوه به.

وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾، تعليل لمنة الله عليهم، نقول: لماذا منَّ الله علينا؟ لأننا كنا من قبل ندعوه. وهذا التعليل هو المفيد لأهل الإيمان في انتظار منة الله تعالى. فكما ذكرنا أن الصفة الأولى هي الإشفاق الذي يستدعي المنة عليهم؛ كان دعاؤهم هو الصفة الثانية. وهذا القول كذلك ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ ثناء على الله ﷻ بأنه استجاب لهم وألحق ذريتهم بهم .

وقوله: ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ،أي: كنا ندعوه في الدنيا. وقوله: ﴿ نَدْعُوهُ ﴾ ، حُذف فيه المفعول ليدل على العموم. فعندما نقول: ندعوه بأي شيء؟ يقال: كنا نبتهل ونتضرع إليه في أمورنا كلها؛ وأول أمر دخل في هذا العموم هو العبادة الحسنة كما قال النبي ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»[1]؛ ثم الابتهال إلى الله تعالى لأنفسهم ولذريتهم للنجاة من النار ولنوال نعيم الآخرة، والوقاية من أسباب الهلكة.

---

١ - سبق تخريجه.

قال ابن عاشور: ولما كان هذا الكلام في دار الحقيقة لا يصدر إلا عن إلهام ومعرفة من الله تعالى، **كان دليلاً على أن دعاء الصالحين لأبنائهم وذرياتهم مرجو الإجابة**؛ لأنهم كانوا يقولون قولاً حقًّا وفصلاً قد وقع في دار الحق. **كما دل على إجابة دعاء الصالحين من الأبناء لآبائهم كذلك**؛ بأن يلحق الله تعالى الآباء الذين لم يسعفهم عملهم الصالح، بأبنائهم الذين وصلوا إلى هذه الدرجة العليا، قال النبي ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[1]، فدل على استجابة دعاء الولد الصالح لأبيه، وكان مما ورد في أحاديث النبي ﷺ أن الولد الصالح يلحق به آباؤه ممن لم يصل إلى درجته بدعائه واستغفاره لهم[2]، فضلاً من الله تعالى كما تفضل على الأبناء فألحقهم ﷻ بالآباء الصالحين.

ثم قال: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ والبر: أي المحسن في رفق، والرحيم: أي شديد الرحمة، وأفاد التعريف بأل المبالغة؛ أن البر الرحيم هو الله، وأن غيره ليس ببر ولا رحيم على الحقيقة، وأن كل بر ورحمة إنما هو من بره ورحمته ﷻ، ولأن بره ورحمته ليس كمثلهما شيء فقد استجاب ﷻ دعاءهم.

---

١ - رواه مسلم (١٦٣١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢ - رواه الإمام أحمد (٢١١٨) وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٢٧/٣): رواه أحمد بإسناد حسن. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥١/١٠): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح، غير عاصم بن بهدلة وقد وثق. ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ).

الفصل الرابع:

بركات اسمه سبحانه وتعالى المنان وحظ المؤمن منه

- السير إلى الله تعالى وتوحيده بالأسماء الحسنى
- بركات الأسماء الحسنى على العبد
- إصلاح النفس باسمه تعالى المنان
- إصلاح علاقتك مع الخلق باسمه تعالى المنان
- مسلك المؤمن العملي مع صفات الله تعالى

أولًا: السير إلى الله تعالى وتوحيده بالأسماء الحسنى

في نهاية ما منَّ الله تعالى علينا من الكلام عن اسمه المنان ﷻ نعود إلى القضية الأصلية في أسماء الله الحسنى، فالتعبد لله تعالى بهذه الأسماء هو أفضل طرق السير على الإطلاق إلى الله تعالى وهو الطريق الذي يوصل المؤمنين قبل غيرهم إلى الله تعالى، وهو الباب الأعظم إلى الله تبارك وتعالى الذي لا يغلق، وطالما كان المرء مهتمًا به مقبلاً عليه، فإن رحمة الله تعالى قريب من المحسنين، وإذا كان المرء قد تحقق بالإحسان في اسمه تعالى المحسن، فأقرب شيء إليه هو رحمة الله تعالى، ورحمة الله تعالى لا يحدها حد؛ فإذا بهذه الرحمة تدركه في بقية الأسماء والآثار، وإذا أدركته فيهما صلح حاله وقلبه وعمله وسيره إلى الله تعالى؛ فوجدته قد تغير.

وهذه حال الأئمة الكُمَّل من المتقدمين الذين كان كل همهم وسعيهم أن يعرفوا ربهم ﷻ ويوحدوه؛ فرأيناهم في هذه الدرجات العلى التي شهدت الدنيا بها، وأنبأنا بها الثقات من أهل العلم، وكانت علامات وضاءةً في هذا التاريخ الإنساني الذي كان مسيطراً عليه معرفة الرب ﷻ، ودعاؤه بأسمائه وصفاته.

فكل العلوم مودعة في أسمائه الحسنى، فليس ثم شيء ليس فيها؛ فإذا فاجأته الذنوب والمعاصي وجد التوبة والاستغفار، وجد التواب الغفار الغفور ﷻ فاجأه النقص والقلة والذلة والمصائب إذا به يجد الوهاب الكريم ﷻ، فاجأه الفقر والمسكنة والضعف إذا به أمام القوي القادر ﷻ، الرزاق ذو القوة المتين؛ وهكذا، إذ إن أحوال المؤمن تصلح بهذه الأسماء الحسنى، وجد نفسه ضعيفًا في بدنه في قوته ولا يستطيع السير إلى الله إذا ذكر ربه

باسمه القوي، ودعاه به ووحده وتململ له أن يعينه على ذلك إذا به يتحقق له، ويرى القوة والمدد قد تنزلت على هذا الجسم الضعيف، وإذا به قد تغير إلى حال حسن يرى فيه قوة الله ومدده وإحسانه ﷻ.

ثانيًا: بركات الأسماء الحسنى على العبد

قلما يخطر على بال المؤمنين اليوم ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى، النبي ﷺ كان إذا كَرَبَهُ أمر قال: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»[1] من الأسماء الحسنى، أو لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، أو اللهم إنك الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد إلى آخر ما كان يدعو به ﷺ من الأسماء الحسنى، أو من اسم الله ﷻ الأعظم[2].

فهذه الملحوظة هي المميزة لعلاقتنا بالأسماء الحسنى أنه لا يدعو أو يتقرب أو ينتظر بركات الرب ﷻ بها أحد إلا من رحم الله تعالى؛ مع يقيننا أن طريق رفع الحاجات إلى الله تعالى هو أسماؤه الحسنى، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾.

فإذا ما صار المؤمن إلى تلك الحال، إذا به قد ظهرت عليه بركات هذه الأسماء، من توحيده لله تعالى بها، وظهر عليه استجابة الله تبارك وتعالى له عندما يدعوه؛ وقد علمنا أن كل اسم من هذه الأسماء له معان كثيرة، يريد المؤمن من الله تعالى أن يحققها له؛ كما في المنان يريد أن يمن الله تعالى عليه، وأن يرزقه الإخلاص؛ ولأنه نهاه عن المن فلابد أن

---

١ - رواه الترمذي (٣٥٢٤) عن أنس بن مالك ﷺ؛ وقال: غريب؛ وقال الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار (٤٠٩/٢) : في إسناده يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف. وذكره الشيخ ناصر الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٨٢) وذكر له شاهداً.

٢ - تم تخريجه.

يكون مخلصًا في عمله، ويريد كذلك من الله ﷻ أن يعطيه حظه من العطاء والرِّفد الذي هو من اسمه ﷻ المنان، وكلنا نحتاج لعطاء الله تعالى كما قال موسى -عليه السلام-: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وكلنا لا شك أشد فقراً واحتياجاً من أنبياء الله تعالى، بل من الصالحين وعوام المؤمنين، إلى أن يمن الله تعالى علينا فيفتح علينا، ويعطينا ويهبنا، ويترفق بنا.

كلنا نحتاج إلى منِّ الله تعالى علينا بالعلم والصحة والمال، نحتاج إلى هذا المن بالتقدم في طريقه تعالى وتوحيده ومحبته والتعلق به، إذا لم يمن ﷻ علينا من يمن؟! من الذي يمن بالمغفرة وبالمحبة والتعلق به تعالى؟ من الذي يمن بالثبات على طريقه تعالى، والترقي فيه؟! من الذي يرزق الرزق الذي ذكرنا من معرفة الرب ومحبته؟!

إذ الأرزاق نوعان:

الأول: يتعلق بمواهب الله تعالى وفتوحاته في معرفته، والتعلق به والإقبال عليه.

الثاني: هو رزق البدن وغيره.

فنحن نحتاج لهذين الرزقين من الله تعالى؛ فكيف لا نطلب منه ذلك؟ ولا نتعرض له سواء بثنائنا عليه بالأسماء الحسنى، أو بدعائنا إياه بها، أو بانتظار بركات الله تعالى بتوحيدنا له بهذه الأسماء؛ لذلك وجدنا معظم قلوب المؤمنين فارغة من بركات هذه الأسماء والذكر بها؛ فالواجب على من كان محتاجاً للرزق الانشغال بدعاء الله تعالى بأنه الرزاق، أو محتاجاً إلى المغفرة والتوبة الانشغال بدعاء الله تعالى بأنه هو الغفور التواب

الرحيم قائلاً: رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور، أو إنك أنت التواب الرحيم؛ فتجد هذه الأسماء الحسنى هي سبب رفع الدعاء إلى الله تعالى؛ ليتنزل بها عليه مغفرته ورحمته ورزقه، وتوسعته على عباده بمَنِّه وكرمه ﷻ.

ثالثًا: إصلاح النفس باسمه تعالى المنان

بأن يرى المؤمن كل المنة لله تعالى، وأن ما فيه من نعمة وفضل، وإنعام في دينه وعبادته، وإقباله على ربه ﷻ، وما في صحته ونفسه وماله وولده، كل ذلك محض فضل منة الله تعالى عليه.

ولْيعلم المؤمنون أن هذه المنة من الله ﷻ تُصلِح حال المرء فيما بينه وبين نفسه؛ فيرى نفسه من وجهتين:

الوجهة الأولى: يراها مفتقرة إلى منن الله تعالى، فلولا هذه المنن ما زكى، كما قال: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١] ولولاها ما آمن، وما اختاره الله تعالى من بين العصاة والفسقة ليقف ببابه، وليقبل عليه.

فهذه الحالة الأولى التي تجعل المؤمن مفتقراً إلى الله تعالى في كل أحواله ينظر إلى ربه في كل شيء له فيه منة عليه، في السراء له منة، وفي الضراء له منة.

إذ إن الله تعالى بهذه الضراء قد خفف عنه ما هو أشد منها، وجعله يقبل عليه، ويدعوه، ويخرج مما هو فيه من البعد والجفاء؛ فتكون علاقته بالله ورجوعه إليه بسبب هذه المحنة أعظم بكثير مما لو كانت منحة.

وهذه الوجهة يرى فيها كذلك من الله ﷻ إصلاح النفس وتهذيبها، **فلولا هذه المحن والشدائد لبطرت النفس وأشرت**، ولصارت جموحة عن الطاعة، مائلة إلى الكسل والدنيا والاستمتاع بها، أو مائلة إلى شيء آخر أسوأ، هو ظنها أنها تستحق تلك المنحة من الله تعالى. لذلك ترى كثيرًا من الناس يظن أن بنعمة الله عليه صار كريماً على الله، مفضلاً عنده، غير مدرك لهذا الاستدراج من الله تعالى، وهو في هذه الحال لو نزلت به هذه الشدائد لكان أولى له من أن يستطرد في رؤية النفس والعجب بالعمل، ونسيان الآخرة وعدم التذكر لفضل الله تعالى.

فعندما تأتيه هذه الكسرة والمحنة من الله تعالى، تخرج من النفس هذه الرعونات، وهذا الشطط وهذه الرؤية للعمل، وتخرج منه أن هذه الأعمال التي يأتيها ليست بقوته وقدرته وفهمه وعلمه وماله، فينسى أن له حولاً وقوة، وكل ذلك لله تعالى، متيقناً أنه **لا يستطيع أن يفعل من ذلك شيئًا إلا أن يقويه الله تعالى ويعينه عليه ويوفقه له**؛ فإذا ما رأى نفسه على هذه الحال إذا به تصلح أحواله؛ فيعود مفتقرًا إلى الله، لا يتكلم بالبغي والتطاول، وهذه الأقوال التي تظهر ما في القلب من المعاني السيئة.

والوجهة الثانية: هي أنه عندما يرى نفسه مفتقراً إلى هذه المنن، ويراها ضعيفة من كل جهة، عالماً أنه لا يملك شيئاً، ولا به ولا له ولا منه شيء، فهو ليس شيئًا؛ إن قال الله له مت مات، إن ابتلاه بمرض أو أصيب في نفسه إذا به يبكي عليها؛ فهو مسكين وفقير؛ **فالوجهة الثانية: علمه أن صلاحه في احتياجه لله تعالى في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة.**

فيصلح بأن يعلم أن المنن كلها لله، وأنه مهما اغترف من هذه المنن لا تنقص؛ فتعرض لهذه المنن؛ وخذ حظك منها، فقد فتحها لك، وأعطاك إياها، وأمرك بالأخذ منها، **بل هو يتفضل عليك بها ابتداءً من غير أن تطلب فما بالك لو طلبت؟!** خزائنه لا تنفد وليست خزائن المال فقط، بل كل خزائن المطلوبات في هذه الحياة الدنيا ﴿ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، أنت محتاج إلى ذلك. فلماذا أيها المسكين تبخل على نفسك؟! وترى هذا الكنز قد فتح لك، وأنت معرض عنه، فتح لك باب الرحمة وسددته، وفتح لك باب العطاء وأنت زاهد فيه لماذا؟ هلا أصلحت نفسك وحاولت أن تأخذ منه لتزداد قرباً من ربك وإقبالاً عليه؟ حتى تصير إلى ما صار إليه السلف الصالحون من حسن العلم والعمل من العبادة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بمصالح الدين ومحبة الله ورسوله ﷺ، مع تكافلهم وتعاضدهم وتعاونهم، إلى آخر ما كان سبب نصرهم في الأولى ورفعة رايتهم، وما ينتظرهم في الآخرة من جزاء الله الواسع؟

إذا لم تكن كذلك فأنت محتاج إلى هذا الأمر في الدنيا، ومحتاج إليه في الآخرة؛ لأنك لا تدخل الجنة إلا بمنة الله وفضله، قال النبي ﷺ : «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا؛ فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ. قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ**»[1]؛ فهو ﷺ إذن يحتاج إلى ذلك؛ وكلنا نحتاج إلى هذه المنة ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

---

١ - رواه البخاري (٦٤٦٧) ومسلم (٢٨١٨) كلاهما يرويه من حديث عائشة رضي الله عنها.

فأنت إذن المقصر في حق نفسك، المفرط في القيام بأسباب سعادتها في الأولى والآخرة، العاجز الذي يرى ما ينقذه ولا يذهب إليه! يرى سبب توفيقه ويعرض عنه! فمن أشد منك يا ابن آدم حمقاً؟! فتلك الذي نحن فيه نهاية الحماقة.

رابعًا: إصلاح علاقتك مع الخلق باسمه تعالى المنان

ذِكْرُ الله باسمه المنان وتوحيده ودعاؤه به **يصلح ما بينك وبين غيرك**، فتعاملك مع غيرك على أن المنة له لا لك، فإن أعطيته فالمنة له أن وفقك الله تعالى لتأخذ بسببه هذه الحسنات.

فلا ترى لنفسك حقاً على إخوانك وفضلاً، بل عليك القيام بحقهم غير منتظر أن يقوموا بحقك؛ فانتظارك الجزاء هو من الله تعالى.

فلو أصلحت ذلك بينك وبين الناس كانت هذه الحال الحسنة التي تسير بالمؤمنين إلى معنى النصر الذي أراد الله لهم، فتراهم متكافلين متراحمين، على قلب رجل واحد، ضمهم الحب والإخاء والفضل والنصرة.

ستحاربك نفسك فتقول: فعلت وفعلت؛ فيأتيك توحيدك لربك بهذا الاسم؛ ليوقفها عند هذه الحدود الشرعية التي تقربك من الله تعالى؛ فمن فعل لإخوانه شيئاً لا بد أن يأتيه الامتحان من الله تعالى الذي يبين صدقه فيما أعطى ومنع؛ يظهر هذا المن منه إن كان عطاؤه ومنعه ليسا لله تعالى.

قد تعلَّمت المنان، ليكون هذا الخلق منك أحسن الأخلاق؛ فتجاهد على كيفية أن تكون معاملتك لله تعالى فقط لا للناس، وكيف لو اختلف عليك الناس من الثناء إلى

المذمة لم تختلف عليهم إلى المن، أو عدمه، فقد فعلت ما فعلت ابتغاء وجهه ﷻ، فإن كنت تريد ربك ﷻ لن تتغير معاملتك، ولن يظهر منك منٌّ، ولن تنتظر مكافئة بالثناء عليك أو غيره، فيبقى عملك خفياً بينك وبين الله تعالى يكفيك أنه قد علمه وسيجازيك عليه أعظم الجزاء.

هذه من أصعب الأخلاق التي نراها، ونادرًا ما تجد واحداً تنكَّر له الناس كما هو لا يتنكر في معاملتهم، ويحسن إليهم طيبة نفسه بذلك؛ لأنه أصلح ما بينه وبين ربه، فكان هذا سببًا في أنه يرضى بما عند الله، ويطمئن لما جازاه الله تعالى وأحسن إليه به، وأعطاه من المعروف والإكرام والنعم، ثم لما ينتظره عنده ﷻ من الجزاء الحسن الجميل. ألا يكفيه ذلك!

لذلك تراه منشرح النفس والصدر مطمئناً، فعل فيه الناس ما فعلوا، وقالوا ما قالوا، ورددوا ما رددوا، وهو لا يتأثر بذلك؛ لأن هذه المسألة قد وصلت بقلبه إلى تلك العلاقة الصامدة الثابتة الراسخة بينه وبين الله تعالى، التي جعلته لا يلتفت إلى وسوسة الشيطان في أن يخرج عن تلك الحال، أو يلتفت إلى أعمال الناس السيئة التي قابلوا إحسانه بها؛ لأنه منشغل بما عند الله، محبّ لثواب الله، متقرب ومتعلق بربه ﷻ لا يرجو سواه، ولا يخاف غيره، ولا ينتظر رضا غيره، وإنما كل ذلك إنما ينتظره من ربه ﷻ.

خامسًا: مسلك المؤمن العملي مع أسماء الله تعالى

ينبغي أن يأخذ اسمه ﷻ المنان حظاً هذه الأيام من وقت الناس ومن عقلهم وقلوبهم وبذلهم وجهدهم ومجاهدتهم ؛ فبعد دراسة الأسماء الحسنى ومعرفة آثارها، وما

ينبغي أن يتعبدوا الله تعالى بها، وغير ذلك من المعاني المهمة، لا ينبغي أن ينشغل الناس بدنياهم عنه، ولما يتحققوا بعد بأسماء الله تعالى، وهذا أمر ينبغي أن يراجع الناس فيه أنفسهم وعلاقتهم بالله تعالى.

لا يمر هذا الاسم عليهم مرور الكرام، وإنما لا بد أن يأخذ جزءاً من وقتهم وجهداً ومجاهدة، فعلى أقل تقدير أن يكون شغلهم الشاغل خلال الأسبوع مثلاً هذه المجاهدة على الاتصاف بتلك الصفات المستفادة من هذا الاسم المشرف، لتكون سجية للمؤمنين وطبعاً فيهم، محققين بذلك توحيدهم لله تعالى بهذا الاسم المعظم.

فمن الآن، لا يمر هذا الأسبوع إلا وقد وطن نفسه وقلبه واستعان بربه ﷻ، وأخذ يجاهد نفسه على أن يدعو الله تعالى به، وأن يكون ذكره الذاكر الذي لا يخل به ولا يغفل عنه، وأن يكون دعاؤه به، فتجد نفسك بعد هذا الأسبوع منشغلاً بهذا الاسم، وترى لسانك قد لان به وأنت سائر تردد: يا منان، منَّ علينا، يا منان أعطنا، تب علينا، ارفق بنا؛ فلا يكون همك سوى اللهم إنك أنت الحنان المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام اغفر لنا، ويدعو الله تعالى بذلك، ويكثر منه، ويكثر من الذكر لله تعالى به، والثناء عليه، فتراك بعد فترة قد تحققت بآثار هذه الأسماء، فوجدت اسمه ﷻ التواب على بالك والرزاق والوهاب والغفار والمحسن ﷻ، والسلام والمؤمن والمهيمن، ووجدت هذه المعاني تلاءمت مع القلب واللسان والجوارح، وبدأت تظهر عليك بركات هذه المعاني التي أودعت هذه الأسماء حسب مجاهدتك؛ وعلى حسب شدة سيرك إلى الله يفتح عليك.

فهذا الباب هو باب الله تعالى، وهو أحسن الأبواب وأقصرها إليه، وأنت تجد فسك فيه فقيراً لا تحاول وتجاهد على أن يتحلى قلبك ولسانك بمعرفة هذه الأسماء والدعاء بها! إن انشغل المؤمن بذلك وجد بركة التوحيد الحقيقية فتنقلب أحواله؛ فلا تعلق بالناس، ولا يلتفت إليهم، ولا يتوكل عليهم، ولا يكون مآله في انتظار الخير منهم، وإنما هو في انتظار الخير والرضا والفرج والرزق والتوبة والمغفرة من الله تعالى.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.